مسالك المعرفة

كتاب بحثي يصدر عن منتدى مسالك المعرفة العلمي

- محور الكتاب: مدخل إلى البيولوجيا الاجتماعية

- مواضيع هذا العدد:
- الإنسان الأول بين الأطروحة العلمية والقصة الدينية.
- المقاربة التطورية مدخلا للاستكشاف السببي للإنسان.
- مشكلة انتقاء القرين طويل المدى عند النساء.
- الرعاية الأبوية للأبناء.
- التنافس على الموارد أساس العدوان والحرب.



كُتّاب العدد

- محمد عبد النور
- زياد الوخيري
- أحمد راس نعامة
- صفية بافولولو
- محمد عوف

إشراف ومراجعة

- محمد عبد النور

للتواصل : scientific.muntada@gmail.com

الكتاب الثاني: 2-1- 2023



تقديم: ما يعنينا من نظرية التطور وما لا يعنينا

محمد عبد النور

بالقدر الذي تثير فيه نظرية التطور المشاعر العامة عندنا، بقدر ما نجدها تعمل بصمت في المخابر العلمية الغربية، وإن دل ذلك على شيء فهو فقداننا للعمل العلمي الصامت الذي يعد الراسب الثابت الذي يمكنه من مناقشة النظرية عمليا قبل النظر في صوابها من بطلانها، ذلك أن النظرية في الميدان العلمي هي بالضرورة محل شك، وأن قطع الشك يكون بالعائد العملي الذي يمكن أن تثمره أي نظرية، أعني أن الباحث العلمي الذي يتعامل مع نظرية التطور لم يعد يبحث عن تزكية النظرية من عدمها، حيث يستحيل الوصول إلى حقيقة نهائية في الموضوع، لكنه يستهدي بالفوائد التي يمكن أن يجنيها جراء استعمال مفاهيمها نظريا، وكذا ما يمكن أن تفيد به النظرية في فهم العالم وبالتالي تطوير ميدان الطب والصيدلة أو التسيير والإدارة مثلا.

لذلك تبقى مناقشة نظرية التطور عقائديا غير ذات معنى، مادامت أولا علاجا لشيء بشيء من غير جنسه، علاج فرضية علمية بمعتقد ديني، وما دام الخوض فيه لا يمكن أن تجنى من ورائه فوائد عملية، إذ يستحيل مناقشة النظرية وأصولها عند غير المختص من قبيل الدخول في مهاترات كلامية لا طائل من ورائها إلا الإثبات وتعبئة الجماهير مع أو ضد، وهو غالبا ما يؤدي إلى بلوغ حد دفع الجمهور ليس لاستسخاف البحث العلمي بل للشد في جدواه أصلا.

وعلى ذلك تبقى مسألة التقبل المبدئي لفكرة التطور كفرضية علمية، من حيث كونها تجمع بين المحسوس وغير المحسوس أمرا معضلا فعلا، وكذا فهم العلاقة بين القصة الدينية والأطروحة العلمية عن الإنسان الأول أمر مهم أيضا حاولت علاجه في المقالة الأولى من هذا العدد..

يبقى أن بقية العروض التي جاءت في هذا العدد خاصة ببعض فصول علم النفس التطوري لديفيد باس صحاب النزعة التطورية-الفطرية التي تتجاهل مقولات التفرد الإنساني، وتعتبر التفرد ذاته ضربا من ضروب الفطرية، أو إحدى مفارقاته، بينما سيخصص العدد القادم لقراءة جميع فصول كتاب ميشال توماسيللو عن أصول المعرفة البشرية الذي يأخذ فيه منحى التطورية-الثقافية التي فرّدت الإنسان بالرمز، عبر مثال رمزي مؤسس لكل التمايز الإنساني هو مثال الترس والسقاطة التي تعبر عن خاصة الإنسان في النقل الاجتماعي الأمين لمكتسباته من جيل لآخر...

فجاءت عروضا دقيقة لأفكار باس، دون تدخل بالأحكام أو النقد، وهذا ديدن كل باحث وطالب موفق: عدم التسرع في الحكم مع أو ضد أو اتخاذ مواقف قبل الهضم والاستيعاب الجيد لرأي أو فكرة أو نظرية عالم أفنى دهرا من الحفر والتنقيب، لذلك فستأتي مقالات كما في العدد السابق خلوا من أي تعقيب، ما عدا المقالة الأولى لهذا العدد التي حاولت فهم الصلة بين الطرحين الديني والعلمي عن الإنسان الأول، فقراءة ممتعة ومفيدة نتمناها للقارئ.

****

المقاربة التطورية بوصفها سبيلا مثلى للاستكشاف العلمي "السببي" لحقيقة الإنسان وتفسير سلوكه؟

يهتم علم النفس التطوري بتحليل العقل الإنساني بوصفه جملة من الآليات النفسية، كما يسعى للكشف عن ماهية السياقات التي تفعل تلك الآليات

والسلوكات التي تولدها، إنها جملة من الإجراءات المصممة داخل المتعضي تم انتقاؤها طبيعيا لنجاحها السابق في حل مشكلات تكيفية واجهها الأسلاف.

من خلال التعريف المتقدم للآليات النفسية المتطورة يمكن أن نفهم أن المقاربة التطورية في فهم السلوك الإنساني هي المقاربة الوحيدة التي يمكن أن تتقدّم بالفهم العلمي للعلوم الاجتماعية، وذلك لاعتمادها مفهوم كشفي أساسي هو الانتقاء الطبيعي، فالانتقاء الطبيعي هو واقعة فعلية وحدوثها يستند إلى حقيقة التكيف التي تعتبر تصحيحا مستمرا للآليات النفسية من خلال التفاعل مع البيئة.

من الأسئلة المركزية التي تثار: أوليس السلوك الإنساني هو نتاج التعلم والثقافة وليس نتاج التطور؟ وبعبارة أخرى أليس السلوك الإنساني هو نتاج التنشئة وليس الطبيعة؟

إن علم النفس التطوري يزيل التعارض الوهمي بين الطبيعة والتنشئة، والفطري، وأيضا لا يعترف بالمقابلة بين البيولوجي والثقافي، وبرهان ذلك أن التطور ليس نقيض التعلم، لأن كل السلوكات تتطلب آليات نفسية متطورة متمازجة مع مدخلات البيئة، فلكي يحدث التعلم فإن الإنسان يحتاج بالضرورة إلى آليات نفسية تخصصية، باختصار إن التعلم في جوهره مضامين، أو معارف تحصل عند الإنسان، أما الآليات التخصصية فهي العملية المسؤولية عن تحصيل تلك المضامين. وتفصيل ذلك يأتي في هذا الملخص التالي الذي دبجه باقتدار الباحث زياد الوخيري للفصل الثاني من كتاب: علم النفس التطوري، العلم الجديد للعقل، ديفيد باس.

****

جذري لمشكلة البقاء، لذلك فإن للنساء اللواتي كن انتقائيات بدرجة عالية أفضلية على النساء اللواتي لم يحسن الاختيار والتي تنزل بهن أعباء كبرى، ورغم أن تنظيم الولادات الحديث منح فرصة للمرأة بأن تقوم بالاتصال الجنسي دون الخوف من الحمل، إلا أن قوانين التطور السيكولوجية الموروثة عن الأسلاف تلقي بظلالها على بقاء الخوف من الاقتران رغم وفرة الأمان.

وعلى ذلك فإنه وكما أن النساء ينتقين بعناية الرجل الذي يساعدهن على الاستثمار في الذرية، فإن الرجال كذلك يبحثون عن المرأة الأكثر استثمارا في الذرية، لذلك فإن درجة الانتقائية مرتفعة عند كليهما، على أن العوامل التطورية ليست المحدد الوحيد للاختيارات الزواجية، ذلك أنه ومن حيث لا يمكن أن تجتمع جميع الشروط الانتقائية –الواردة في صلب النص- في رجل واحد، فضلا عن تأثير السياق والأهل والأقارب القوي في مسألة الاختيار، هذا وما هو أكثر إثارة سنعرفه في هذا الملخص عن الفصل الرابع من كتاب: علم النفس التطوري العلم الجديد للعقل، لديفيد باس.

****

الذرية في كل الأنواع هي بمثابة "عربة ناقلة" للمورثات، تنتقل من جيل لآخر، فإذا كانت الذرية نتاج اقتران الأنثى بالذكر إلا أنه يغلب على الإناث العناية بالذرية أكثر بما لا يقاس بعناية الذكور، حتى أن الأنثى قد تعرّض نفسها للخطر في سبيل حياة ذريتها؛ وعلى ذلك فقد وجدت أنواع حية لا تنخرط مطلقا في الرعاية الأبوية، فبعضها يقوم بإفراز المني والبويضات دون أدنى رعاية والدية!

لعل من أسباب العزوف عن الرعاية الوالدية هو كلفتها الباهظة التي قد يرى الآباء أن تسخيرها لأنفسهم، أو توجيهها نحو الإكثار من القرناء هو أفضل بكثير من هدرها في سبيل الذرية، إنه موضوع مهمل في أدبيات علم النفس الحديث كما يرى باس.

لكن الإشكالية الكبرى في الموضوع تتمثل في عدم تأكد الذكر من أبوته للذرية المنسوبة إليه، بعكس الأنثى التي تكون متأكدة بأن نصف المورثات الكامنة في الذرية هي لها بشكل مؤكّد، وعلى ذلك فإن للرجل مصدران للتأكد من أبوته: أ- الثقة في شريكته، ب- شبه ذريته به؛ ومن الطرائف التي يأتي بها باس هي أن الأم –ومن خلال تجارب- تنزع نحو ترويج التشابه بين الأب وأطفاله.

وعلى ذلك، تتصور نظرية الصراع والِدين-أبناء أن من بين المشكلات الأساسية تتمثل في عدم التوافق بين ما يريده الأبناء من حجم الموارد التي يوفرها لهم الآباء وبين ما يقدر الآباء أنه كاف لهم.

على أن افتراضات أخرى قدّرت أن الصراع يبدأ من مرحلة الجنين حيث يسعى الجنين لتثبيت نفسه في جدار الرحم ووقف الدورة الشهرية ليقاوم الإجهاض العفوي وغير الإرادي الذي ترغب فيه المرأة الحامل بعد أن تعرف غريزيا أنه جنين مشوه كروموزوميا، كما يبدأ الجنين في صراع من أجل تحصيل الطعام الذي يتسبب في تضييق سعة الشرايين ليتدفق إليه الدم للحصول على تغذية كافية.

هي قراءة واقعية في مسألة العناية الأبوية للأولاد، قد تبدو بعيدة عن القيم لكنها في الجوهر واقعية، وقد يمكن استعاضة بعض الأمثلة المتطرفة التي قد لا توجد في مجتمعاتنا بأمثلة أخرى شبيهة أو قريبة تدعم المنحى العام للأطروحة بين أيدينا.

****

تتمثل أهم غايات الحروب والعداوات في السعي للهيمنة على الموارد الحيوية والاستفراد بها، إذ يتميز الذكور بالنزوع إلى العدوان الجسدي دون الإناث منذ سن الثالثة؛ فليس الأصل في الإنسان أنه وديع، فالغالب على رجال البشر مبادرتهم بالدخول في تحالفات من أجل الإغارة على المجالات الحيوية المجاورة أو التحالف من أجل الدفاع عن مجالهم المهدد.

قد تكون الخسارة أمام العدو فعلية مثل فقدان الموارد أو الموت، أو معنوية مثل فقدان السمعة أو الشرف، والخسارة تزيد من تكالب الغزاة والمغيرين على ضحيتهم، كما قد يكون العدوان أيضا من أجل الترقي في المكانة أو من أجل الاستفراد بالجنس الآخر.

والمحصلة هي أن الذكور قد طوروا إما نزعة فطرية للعنف كوسيلة تكيفية للتحكم في الصراع يمكن أن تكتفي بالتهديد بالعنف أو قد تنزع إليه في الحالات القصوى، أو أنهم قد طوروا استعدادا للقتل في ظروف يمكن التنبؤ بها، ويرجح باس الثانية رغم أن التجارب حولها منعدمة.

يتفاوت تحليل باس في هذا الفصل بين البعدين الفردي والجماعي، فالفردي يتعلق بالجوانب الاجتماعية المجهرية للأفراد حيث العدوان يكون من أجل المكانة أو الإناث أو الموارد الفردية الخاصة، أما الجماعي فيتعلق بالجوانب السياسية حيث العدوان والدخول في الحروب تتعلق بمكاسب جماعية رغم أن الجوانب الفردية تداخل بشكل حتمي وقوي، إذ يصعب جدا في السياسة التمييز بين الصالح الفردي والصالح العام من حيث الدوافع والأسباب رغم أنه يمكن رؤيته بكل سهولة من حيث النتائج من حيث استفراد بعض الأفراد بالامتيازات.

الإنسان الأول، بين الأطروحة العلمية والقصة الدينية، أية علاقة؟

محمد عبد النور(*)

من حق أي كان أن يرفض الكلام عن تطور الإنسان من رئيسات أدنى منه، لكن من واجبه أن يعرف أن فكرة التطور في حد ذاتها مرتبطة بشكل وثيق بالعلم والبحث العلمي، وأن إنكار التطور سواء في الإنسان أو الكائنات والوجود عامة بزعم أنها خلقت جملة واحدة وبشكل فجائي في إحدى لحظات التاريخ ليس هو رفض لفكرة أو نظرية علمية قد تصيب أو تخطئ، لكنه دليل على جهل مضاعف بأمرين:

جهل بعلاقة العلم بالسببية وأن العلم التجريبي لا يمكن يقوم بلا تعليل حسي تجريبي من العالم الطبيعي.

وهو أيضا جهل بالعلاقة بين السببية والزمن، فلا يمكن للأسباب أن تحصّل الآثار على الوجود دون زمن.

وما دام العلم التجريبي ملتزما بالبحث في العالم الطبيعي -ولم يتدخل في عالم الغيب أو الميتافيزيقا- فمن حقه أن يتوغل في كل معرفة ممكنة التعليل بالحس لاستكشاف مجاهليها، والبحث السببي في كل أصناف الوجود لابد أن يكون تاريخيا نظرا لأن منهجه الأساسي هو البحث في العلل ضمن إطار زمني بمنطق: كيف كانت الأشياء؟ وكيف صارت عليه الآن؟ أعني أن البحث العلمي يفترض أن كل الموجودات اليوم عرفت تحولا منذ وجدت وإلى اليوم، بقول آخر: أن كل الموجودات توجد الآن وهي في أعقد حالاتها الممكنة من حيث التركيب الداخلي لمكوناته المادية وعلاقة تلك المكونات فيما بينها، وأن الكشف العلمي عن الموجودات يقتضي تحليلها، وتحليلها يعني استكشافها وهي في أبسط حالاتها، أي كيف كانت قبل أن تصل إلى ما هي عليها الآن.

وعليه، فإن نظرية التطور في تاريخ العلوم ليست في الواقع إلا تحصيل حاصل، ذلك أن كل البحث العلمي هو من منظور ما تطوري بالضرورة، كل محاولة كشف أو استكشاف علمي هي في الجوهر نظر في "تاريخ الشيء"، فهذا يشمل كل ظواهر الوجود بدءا بالوجود الفيزيائي وصولا إلى البناء الثقافي ومرورا بالأحياء على تدرجها، ودون النظر في تاريخ الظواهر لا يكون العلم التجريبي ممكنا، العلم التجريبي إذن هو ضرب من الخبر التاريخي الذي يصل إليه الباحث بعد التقصي، لكنه خبر معلل بأسباب تجريبية، وحتى لو تمت الاستعانة بالمنطق المجرد في التعليل فلابد وأن يحوي على حد أدنى من "المؤشرات" الحسية.

إن السرديات غير التجريبية حول ظهور الكون وظهور الإنسان تصور حدوث الأمر على أنه خلق فجائي، علما أن المشترك بين القصة العلمية والسرديات هو أن الخلق حدث خلال "لحظة ما" بالمنظور الأرضي، يعني التسليم بوجود بداية للكون والإنسان بعد أن كانا معدومين، وأن تلك البداية حدثت وفقا لأسباب، إذ تعزوها القصة الدينية لأسباب روحية، حيث لا زمن في عالم الروح، ففي عالم الروح يختلط الماضي بالحاضر بالمستقبل من منظور أرضي، وبالتالي فإن خلق الإنسان حصل في لازمن، لكن الإنسان مجبول على أن يفكر في بدايات الأشياء أرضيا أي أنه يستحضر الزمن بالضرورة عند تصوره ظهور الكون أو ظهور الإنسان.

وبه، فإن النص الديني نفسه يعرض لكيفية الخلق ضمن تاريخية معينة، لكنها ليست تاريخية سببية بل تاريخية روحية، ويمكن تعريف التاريخ الروحي بأنه العلاقة بين الخالق والمخلوق حصرا، أو قل هي علاقة تاريخ عالم االروح بعالم الطبيعة، وعليه فإن غاية النص الديني ليس بيان العلل السببية للخلق كما هو الحال في التاريخ الطبيعي، إذ يمكن أن نقرر أن علاقة عالم الروح بعالم المادة تحصل من وجهين:

1- العلاقة الفعلية الموجودة بين العالمين، حيث وجودها الحقيقي رغم خفائها سواء كبدايات (أيام الخلق) ونهايات (يوم الحساب)، والأهم هو أنها حاصلة ومستمرة عبر مراقبة الإله لأفعال الإنسان خلال حياته من يوم التكليف إلى يوم الوفاة.

2- العلاقة الرمزية التي يؤسسها النص الديني بين العالمين من خلال خطاب مباشر ومتجدد بين الذات الإلهية والذات الإنسانية، رغم ضمورها بين (يوم الميلاد) و (يوم الوفاة)، والأهم هو التذكير بالصلة الفعلية والحقيقية (غير الحسية) بين أعمال الإنسان ومصيره النهائي.

وعليه، فالتصادم بين بين القصتين العلمية والدينية حول ظهور الإنسان ورغم اختلافهما ليس ضروريا مادام اختلافهما في القصد والمنهج معا، لكن كيف يمكن أن تتراكب القصتان؟

تؤخذ القصة الدينية كفرض قبلي، وتؤخذ القصة العلمية كتحقق بعدي من الفرض، نفترض مثلا أن الدافع الرئيس للبحث العلمي في بدايات الخلق هو المتوفر من القصص والسرديات الدينية حوله، وبالتالي فإن فالباحث دائما ما يستصحب القصة الدينية في مخيلته ليس في تفاصيلها لكن كفكرة موجهة فحسب، على أن أفضلية القصة الدينية وضوحها التام من حيث تركيزها على البدايات والنهايات، من: {إني جاعل في الأرض خليفة} إلى: {قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو}.

فالقصة الدينية كلها تركز على المقدمات والنتائج، مقابل غموض كبير في "كيفيات" الخلق إلا أن تكون إشارات عالية الترميز: {ونفخنا فيه من روحنا}، إذ في مسألة النفخ نقع على تماس رفيع جدا بين بدايات العقل الإنساني كإدراكات سامية وبين التكليف الإلهي للإنسان، فقد يكون حدث النفخ متحققا بالمعنى الحرفي، فهو هنا بمعنى الإجتباء، اجتبى آدم كشخص من بين بقية الإنس ورفعه إليه ونفخ فيه من روحه في عالم الغيب، والفرضية الرئيسة هنا هي أن آدم حاز الكمالين العقلي والروحي معا، فكان أسمى بشر بلغة الطبيعة (تمام العقل) وأسمى بشر بلغة الروح (تمام الإرادة)، وعلى هذا يتأسس أن نبوات البشر كلها كانت متسقة تمام الاتساق مع تطور الحضارة الطبيعية للبشر، تماما كما نسب للنبي إدريس أنه أول من خط واختط وخاط، خط بالقلم واختط المدن وخاط اللباس، وهذا يفتح آفاقا واسعة لإعادة قراءة التاريخ من منظور وحدة التاريخين الطبيعي والروحي.

على أن المسألة الأهم في كل ذلك هي مسألة غياب البعد الزمني في القصة؛ لكن إذا استحضرنا مسألة خلق الكون فنجد الزمن حاضرا: {خلق السماوات والأرض في ستة أيام}، أي في ستة مراحل أو حقب زمنية، حيث استعمال اليوم في القرآن ليس مقصورا على مدة ليل واحد ونهار واحد، على غرار يوم الحساب مثلا، وعليه فإن خلق السماوات والأرض هي البداية الفعلية لكل الموجودات بما فيها الأشكال الأولية للبشر التي يمكن أن تكون قد حصلت في المدة الفاصلة بين خلق الكون واجتباء آدم.

(*)- المشرف على منتدى مسالك المعرفة، ومحرر كتاب المنتدى.

المقاربة التطورية مدخلا للاستكشاف السببي للإنسان

زياد الوخيرى(*)

يبدأ ديفيد باس الفصل الثاني بعرض أهم النظريات الكبرى التي تعلل وتفسر اصول التكيفات كما أنه يقوم بعرض الاسباب العلمية التي أدت لاختيار نظرية الانتقاء الطبيعي كنموذج نظري مرشد لعلم النفس التطوري ويقسم ديفيد باس هذه النظريات الى ثلاث نظريات اساسية على النحو الاتي:

اولا: نظرية الخلق والتي تقوم على فكرة أن هناك إرادة الهية سامية قد خلقت كل النباتات والحيوانات ,ويرى الكاتب أن هذه النظرية نظرية غير علمية لأسباب ثلاثة أنه لا يمكن اختبارها بالاضافة الى انه لا يمكن استنتاج توقعات تجريبية نوعية انطلاقا من مقدمتها الكبرى كما أنها لم ترشد الباحثين الى اكتشافات علمية جديدة واخيرا لم تبرهن عن جداوها كتفسير علمي للآليات العضوية التي اكتشفت، وعليه يقول باس أن نظرية الخلق هي مسألة دين واعتقاد وليست مسألة علمية .

ثانيا نظرية البذار ومرادها هي أن الحياة لم تبدأ على الارض وإنما هي ابتدأت خارج الارض ووصلت الى الأرض بالعديد من الأشكال حسب صيغ هذه النظرية، فمن تلك الصيغ التي تقول بأن كائنات فضائية نقلت بذور الحياة إلى الأرض وصيغة أخرى تقول نقلت تلك البذور بواسطة إحدى النيازك، وبالرغم من أن هذه النظرية تبدو غير مقبولة الا أنها نظرية قابلة للاختبار من حيث المبدأ، أي أنه يمكننا دراسة النيازك بحثا عن مؤشرات للحياة أو البحث في الأرض عن آثار للكائنات الفضائية التي تركت تلك البذور، ومع ذلك فإن نظرية البذار تقع في ثلاث مشكلات أساسية أولها أنه لا يوجد دليل علمي متين على الأرض أن مثل هذا البذار قد حدث أصلا، وثانيا أن نظرية البذار لم تؤدّ الى اكتشافات علمية جديدة، ولا هي فسرت أي لغز علمي موجود، بالإضافة أنها تصطدم مشكلة أساسية إذ هي تدفع ببساطة التفسير السببي لأصول الحياة الى الوراء في الزمن .

ثالثا: نظرية التطور بالانتقاء الطبيعي بالرغم من المشكلات التي تواجهها إلا أن مبادئها الأساسية قد تم إثباتها عددا كبيرا من المرات، ولم يتم أبدا إثبات بطلانها، بحيث أنها تعتبر من قبل معظم علماء البيولوجيا واقعة فعلية، إذ أظهرت مكونات عملياتها، أي التكاثر الفارقي العائد إلى فروق تصحيحية موروثة، بالإضافة أنها تعمل في كل من الوضعية المختبرية والوضعية البرية الطبيعية، وتتمتع نظرية الانتقاء الطبيعي بفضائل عدة يبحث عنها العلماء في النظرية العلمية: فهي تنظم الوقائع المعروفة وهي أيضا تؤدي الى تنبؤات جديدة، كما أنها توفر دليلا مرشدا لمجالات مهمة من الاستقصاء العلمي.

ولذلك وبناء على ما تم طرحه هذه النظريات تبين أن نظرية الانتقاء الطبيعية نظرية لا تباريها أيا من تلك النظريات المعروفة حاليا، ولأنها أيضا الوحيدة التي تملك القدرة على تعليل أصول وبنى آليات التكيف المعقدة التي تستوعب الطبيعة البشرية، إذ ستكون نظرية الانتقاء الطبيعي هي النموذج المرشد في علم النفس التطوري .

منطق توليد الفرضيات حول آلياتنا النفسية المتطورة:

يعمل منطق توليد الفرضيات حسب أربعة مستويات من التحليل يبدأ من الأكثر عمومية الى الأكثر خصوصية وتمثل النظرية التطورية العامة أعلى مستوى من مستويات التحليل الاتية:

أولا: مستوى التحليل الأول (النظرية التطورية العامة) والتي تسعى لفهم التطور من خلال الانتقاء الطبيعي في صيغته الحديثة من منظور "عين الموروثة"، فالاستنساخ الجنيني الفارقي هو المحرك لعملية التطور التي تتشكل التكيفات بواسطتها، بالإضافة إلى أن النظرية التطورية العامة تتضمن أكثر من مجرد عملية الانتقاء الطبيعي، الا أن الانتقاء الطبيعي هو العملية السببية الأساسية الوحيدة المعروفة القادرة على خلق تصميم وظيفي معقد، وبالتالي سيتم التعامل معها باعتبارها المستوى الأكثر عمومية في مرتبية التنظير التطوري لذلك ستكون نظرية التطور العامة هي النموذج المرشد لعلم النفس التطوري كما هو الحال في البيولوجيا.

ثانيا: نظريات المدى المتوسط التطورية بالتحرك نزولا لمستوى واحد سنجد نظريات المستوى المتوسط من مثل نظرية ترايفرز في الاستثمار الوالدي والانتقاء الجنسي وما زالت نظريات المدى المتوسط هذه واسعة بشكل مقبول بحيث تغطي مجالات كاملة من النشاط الوظيفي كما أنها تشكل مجالا مقبولا للاختبار العلمي بحيث أنه من الممكن اثبات بطلانها ويفحص باس في هذا السياق لتوضيح الفكرة حول نظريات المدى المتوسط نظرية ترايفرز في الاستثمار الوالدي بما هو القوة الدافعة وراء الانتقاء الجنسي .

ثالثا: الفرضيات التطورية النوعية وبتحركنا نزولا نصل إلى مستوى الفرضيات حيث تحدد الفرضية النفسية التطورية العلمية بقابليتها للاختبار التجريبي، ويتناول الكاتب مثالا على فرضية أن النساء قد طورن تفضيلات نوعية للرجال الذين لديهم ما يقدمونه من الموارد، وتعتبر هذه فرضية نفسية لأنها تطرح وجود آلية نفسية نوعية مصممة لحل مشكلة تكيفية إنسانية نوعية مما يتمثل في الحصول على رجل يبدو وأنه قادر بدرجة عالية على الاستثمار في الأطفال بالإضافة إلى إمكان اختبارها تجريبيا، إذ يستطيع العلماء أن يدرسوا النساء ويحددوا في ما لو كن يفضلن في الواقع الرجال الذين هم في الآن عينه قادرون وراغبون في توفير الموارد لهن ولأطفالهن .

وأخيرا، اذا تحركنا نزولا نحو المستوى الأدنى من التراتبية سنجد التنبؤات بوصفها نتاج الفرضية، وعلى سبيل المثال على التنبؤات وبناء على الفرضية السابق عرضها يمكننا استخراج مجموعة من التنبؤات منها :

ستقدر النساء في الرجال صفات نوعية ذات ارتباط معروف بكسب الموارد.

سيشد انتباه النساء نحو الرجال الذين يبدو عليهم امتلاك الموارد.

إن النساء اللواتي لا يوفر لهن أزواجهن موارد اقتصادية يغلب عليهن أن يطلقن.

وأخيرا ينبهنا الكاتب لأمرين بخصوص هذه التراتبية في التحليل، أولا أنها لا تعدو كونها تبسيط مفرط لمنطق عمل إنتاج الفرضيات، ولابد من إدخال عدة مستويات إضافية من التحليل؛ وأما الامر الثاني بخصوص شروط هذه التراتبية وتحديدا اختبار الفرضيات فيرى أنه إذا لم تنجح التنبؤات تجريبيا عندها ستوضع الفرضيات التي خرجت منها التنبؤات موضع السؤال مما يؤدي أيضا إلى مسائلة نظريات المدى المتوسط باعتبارها المنتج للفرضيات.

منتجات العملية التطورية:

هناك ثلاث منتجات للعملية التطورية: أول هذه المنتجات (التكيفات) وهي مجموع الخصائص الموروثة والنامية التي أتت إلى الوجود من خلال عمليات الانتقاء الطبيعي بسبب أنها عملت على حل مشكلات في البقاء أو التكاثر أفضل من تصميمات أخرى كانت موجودة لدى أفراد النوع، ويجمع

العلماء في علم النفس التطوري مع اختلاف تقديراتهم (للتكيفات) على أنها هي المنتج الأولي للتطور من خلال الانتقاء، وثاني منتجات العملية التطورية مايسمى (بالمنتجات الثانوية) وهي الخصائص التي لا تحل مشكلات تكيف بالاضافة أنها لا تمتلك تصميما وظيفيا وإنما حملت مع الخصائص التي كان لها تصميم وظيفي، وثالث منتجات العملية التطورية (التشويش) أي الآثار العشوائية الناتجة عن قوى من مثل الطفرات أو التغيرات المفاجئة في البيئة أو آثار الصدفة اثناء النمو.

طبيعة الآليات النفسية المتطورة:

يهتم علم النفس التطوري بتلك الاجزاء النفسية أي تحليل العقل الانساني بما هو مجموعة من الاليات النفسية المتطورة وعلى السياقات التي تفعل هذه الاليات وكذلك على السلوكات التي تولدها هذه الآليات، وهكذا إذن نتحول إلى الكلام عن "طائفة التكيفات التي تشكل العقل الإنساني"، أي الآليات النفسية المتطورة.

يمكن تعريف الاليات النفسية المتطورة بأنها عبارة عن طاقم من الاجراءات داخل المتعضي مصممة لتلقي شريحة خاصة من المعلومات وتحويلها من خلال قواعد اتخاذ القرار الى مخرجات ساعدت تاريخيا في حل مشكلة تكيفية توجد في المتعضيات لانها ادت عموما الى حلول ناجحة لمشكلات تكيفية نوعية واجهها أسلاف هذه المتعضيات، وتمتلك الآليات النفسية المتطورة مجموعة من الخصائص التالية :

1- توجد الآلية النفسية المتطورة بالشكل التي هي عليه لأنها حلت تكرارا مشكلة نوعية في البقاء أو التكاثر خلال التاريخ التطوري.

2- الآلية النفسية المتطورة مصممة كي تتلقى شريحة ضيقة من المعلومات فقط.

3- تعلم مدخلات الآلية النفسية المتطورة للمتعضي بالمشكلة التكيفية الخاصة التي يواجهها.

4- تتحول مدخلات الآلية النفسية المتطورة من خلال قواعد اتخاذ القرار إلى المخرجات.

5- يمكن أن تكون مخرجات الآلية النفسية المتطورة إما نشاطا فسيولوجيا او إعلام آليات نفسية أخرى أو سلوكا ظاهرا.

6- تكون مخرجات الآلية النفسية المتطورة موجهة نحو حل مشكلة تكيفية نوعية.

7- توفر الآليات النفسية المتطورة محكات غير اعتباطية "تشكل الدماغ في مفاصله الطبيعية".

8- تنزع الآليات النفسية المتطورة لأن تكون متخصصة نوعيا بالمشكلات إذ لا يوجد ما يمكن تسميته "مشكلة تكيفية عامة"، حيث كل المشكلات هي ذات مضمون نوعي ولأن المشكلات التكيفية نوعية، تنزع حلولها لأن تكون نوعية بدورها وتعود الأصلية للخصوصية على العمومية للآليات التكيفية لعدة أسباب:

أ- فشل الحلول العامة في توجيه المتعضي الى الحلول التكيفية الصحيحة.

ب- تؤدي الحلول العامة الى العديد من الأخطاء مما يجعلها مكلفة بالنسبة للمتعضي .

ت- إن ما يشكل حلا ناجحا يختلف من مشكلة إلى أخرى.

ج- يمتلك البشر آليات نفسية متطورة بمعنى آخر إذا كانت المشكلات النوعية التي تواجه الإنسان تطلب حلولا نوعية فإذن لابد من وجود الآلاف من الآليات النوعية لتوفير الحلول لتلك المشكلات.

د- تعطي نوعية الآليات النفسية المتطورة وتعقيدها وتعددها مرونة سلوكية للبشر.

ويثار سؤال شائع حيال افتراض الآليات النفسية المتطورة يُصاغ بشكل أو بآخر كما يلي: أوليس السلوك الانساني الذي نلاحظه ناتج عن التعلم والثقافة وليس عن التطور؟ أو ليس السلوك الانساني هو نتاج التنشئة وليس الطبيعة؟

إن النظر لهذا السؤال من داخل سياق علم النفس التطوري يفقده معناه، إذ أن علم النفس التطوري يزيل حالات الفصل من مثل الطبيعة في مقابل التنشئة، والفطري في مقابل المتعلَّم، وكذلك البيولوجي في مقابل الثقافي.

وإذا رجعنا إلى تعريف الآليات النفسية المتطورة سنلاحظ أولا أن كل آلية نفسية تشكلت بفعل ضغوطات الانتقاء البيئي المتكرر عبر مدى زمني طويل، وثانيا إن مدخلات البيئة ضرورية لظهور كل آلية خلال نمو الشخص، وكذلك هي ضرورية لتفعيل كل آلية، كما أن التطور ليس نقيضا للمتعلم، حيث أن كل السلوكات تتطلب آليات نفسية متطورة متمازجة مع مدخلات بيئية في كل مرحلة من مراحل السلسلة السببية، كما أن معنى المتعلم بأنه وصف شيء ما لا يوفر تفسيرا لأنه ببساطة، وذلك لكون المدخلات البيئية تغير المتعضي على نحو ما، بالإضافة إلى أن المتعلم والمتطور ليسا تغيرين متنافسين بل إن التعلم، ولكي يحدث، يتطلب آليات نفسية تخصصية وبهذا التصور تكون العلاقة بين التعلم والتطور علاقة تكاملية وليست تنافسية.

طرائق لاختبار الفرضيات التطورية :

تقوم الأسس العلمية لعلم النفس التطوري ليس على طريقة مفردة، إنما على مجموعة طرائق ومصادر للبيانات وتعدد طرائق اختبار الفرضيات في علم النفس التطوري لا يمثل تهديدا لهذا العلم الحديث بل يمثل مصدر قوة له كما يقول الكاتب أن استخدام مصادر بيانات متعددة في اختبار الفرضيات التطورية يمكّن من التوصل إلى أسس أكثر متانة لعلم النفس التطوري ومن الطرائق في اختبار الفرضيات في علم النفس التطوري التالي :

1- مقارنة الأنواع المختلفة وتضمن هذه الطريقة اختبار التنبؤات حول تكرار حدوث السمة بين أجناس في الحيوانات التي يحاول الباحث فهم سلوكها.

2- مقارنة الذكور والإناث وتضمن هذه الاستراتيجية تحليل الطبيعة المختلفة لمشكلات التكيف التي تواجه كل من الذكور والاناث.

3- مقارنة الأفراد ضمن النوع الواحد.

4- مقارنة الأفراد ذاتهم في سياقات مختلفة.

5- الطرائق التجريبية.

مصادر البيانات من أجل اختبار الفرضيات التطورية:

1- السجلات الاحفورية

2- البيانات من مجتمعات الصيد وجمع الطعام .

3- الملاحظات

4- التقارير الذاتية

5- بيانات تاريخ الحياة والمدونات العمومية

6- المنتجات البشرية

تعيين المشكلات التكيفية وتحديدها :

والآن نصل إلى سؤال كيف لنا أن نعرف ما هي هذه المشكلات التكيفية؟

حيث يرى الكاتب إن عدم التحديد هذا يعود إلى عدة عوامل، أولها أنه ليس بإمكاننا إعادة عقارب الساعة التطورية إلى الخلف من أجل رؤية كل ما عاصره أسلافنا، ومن ناحية ثانية يرى بأن كل تكيف جديد يولد منه مشكلات تكيفية جديدة خاصة به، ويرى بأنه ستشكل مشكلة تحديد كامل مجموعة المشكلات التكيفية للبشرية مهمة ضخمة ستشغل بال العلماء لعدة عقود قادمة، ومع ذلك يرى أن

هناك عدة موجهات يمكنها أن تعطينا نقطة انطلاق لتعيين المشكلات التكيفية وتحديدها :

1- التوجيه الآتي من النظرية التطورية الحديثة والذي يقوم على مئات المشاكل التكيفية الكبرى التالية :

أ- مشكلات البقاء والنماء .

ب- مشكلات الاقتران .

ت- مشكلات التنشئة الوالدية.

ث- مشكلات مساعدة الأقرباء الجينين.

2- التوجيه الآتي من المجتمعات التقليدية.

3- التوجيه الاتي من الآليات الراهنة.

4- التوجيه الاتي من علم الأحافير الإحاثي والانثروبولوجيا الإحاثية.

5- التوجيه الاتي من تحليل المهمة .

(*) إجازة في الخدمة الاجتماعية، جامعة القدس المفتوحة، ملخص عن الفصل الثاني من كتاب علم النفس التطوري، ديفيد باس، بعنوان: علم النفس التطوري الجديد، ص 111-170

مشكلة انتقاء القرين طويل المدى عند النساء

أحمد راسنعامة(*)

ليس صحيحا أن الأم تستثمر في الأبناء أكثر من الأب، فبعض الأنواع يبذل فيها الذكور لذريتهم أكثر مما تبذله الأمهات، كما ليس صحيحا أن المرأة هي دائما منفعلة في انجذابها للرجل، إنها في الأغلب الأعم نفعية في ذلك فهي تفضل الرجل الأكثر الذي يبدو فيه السعي لتحصيل مصادر حمايتها، ذلك أن إقدام الرجل على البذل يشكل بالنسبة للمرأة موردا ثمينا للنساء لا يفرط فيه، فما مقدار ومستوى القيم وتأثير عامل الحب في الزواج؟

معلوم أنه ينتج عن الاقتران ذرية يتمكنون من البقاء والتكاثر، وتنتقي المرأة الرجل الراغب فيها والقادر على الالتزام معها، وفي تحقيق ذلك حل

من بين المشكلات التي يتعين على النساء مجابهتها خلال التاريخ التطوري، هو مشكلة حسن انتقاء قرين أو رجل راغب في الالتزام بعلاقة طويلة المدى (الزواج)، فالمرأة التي فضلت الاقتران برجل موثوق راغب في الالتزام بها من المفترض أن يكون لها أطفال سيتمكنون من البقاء والنمو والتكاثر، وهذا التفضيل تطور لدى النساء تجاه الرجال الذين يبدون ميزات الرغبة والقدرة على الالتزام معهن، وهذا التفضيل حل مشكلات مفصلية للبقاء، تشبه مشكلة الطعام.

خلفية نظرية لتطور تفضيلات القرين:

تتوفر نظريتين مهمتين تشكلان مفتاحا لفهم تطور هذه التفضيلات وتنقسم إلى نمطين:

النمط الأول يعالج القضية التي تتعلق بالذكور والإناث وهي قضية "الاستثمار الوالدي".

النمط الثاني يعالج "تفضيلات القرين" باعتبارها آليات نفسية متطورة.

أولا: الاستثمار الوالدي:

من المعروف أن الاختلافات بين الذكور و الإناث عديدة ومتنوعة خاصة في الجانب البيولوجي، ونخص من بينها الاختلاف بين الامشاج الصغيرة الخاصة بالذكورة والامشاج الكبيرة الخاصة بالإناث من حيث الشكل والوظيفة، وهذا ما يحدث الفارق الجوهري، بحيث أن لفعل جماع واحد، لا يتطلب من الذكر إلا حدا أدنى من الاستثمار، أن ينتج استثمارا إلزاميا ومستهلكا للطاقة لدى المرأة ويمنع فرص اقتران أخرى، وبما أن المرأة هي من تتحمل تبعات المولود، ليس هناك قانون بيولوجي في علم الحيوان يفرض على الإناث الاستثمار أكثر من الذكور في الحقيقة يوظف الذكور واقعيا أكثر من الإناث في بعض الأنواع.

الاستثمار الوالدي لدى الإناث يجعل منها مصدرا وموردا ثمينا، فمن يحملون موردا ثمينا لا يفرطون فيه كيفما اتفق، فإن التطور أعطى الأفضلية للنساء اللواتي كن انتقائيات بدرجة عالية في اختيار قرينهن، كان يمكن للنساء أن تعانين أعباء شديدة لو أنهن كن غير انتقائيات.

عدلت تقنية تنظيم الولادات الحديثة كل ذلك، تستطيع النساء القيام بعلاقات جنسية قصيرة بدرجة أقل من الخوف من الحمل، إلا أن السيكولوجية البشرية قد طورت عبر ملايين السنين كي تتعامل مع مشكلات الأسلاف التكيفية، مع أن البيئة تغيرت إلا أن البشر يمتلكون هذه السيكولوجية الدفينة، وكخلاصة لما سبق نستنتج نبوءتان عميقتان:

أ- الجنس الذي يستثمر أكثر في الذرية (هن النساء خصوصا وإن لم يكن دائما) ستكن أكثر تمييزا أو انتقائية بصدد التزاوج

ب- الجنس الذي يستثمر أقل في الذرية سيكون أكثر تنافسية للوصول الى الجنس الآخر ذي الاستثمار الأعلى

ولذلك تتنبأ نظرية الاستثمار الوالدي بأنه يتعين على كلا الجنسين أن يكونا جد انتقائيين وتمييزيين.

ثانيا: تفضيلات القرين بما هي آليات نفسية متطورة:

تفضيل وانتقاء صفة أو ميزة تكيفية ومصيرية من بين عدة صفات هو الذي يضمن للعنصر البشري البقاء والتكاثر وكذا الاستمرار بقيمة أعلى خلال زمن التطور، وهذه الآلية تكون متعلقة بمؤشرات الطرف الآخر جلية وملاحظة وموثوقة، بهذا يكون الانتقاء أيسر.

ركز الانتقاء على الخصائص الأثمن تكيفيا أما النساء اللواتي يفتقرن إلى تفضيلات تكيفية ملائمة فإنهن لسن جداتنا، إذ تم التفوق التكاثري عليهن من قبل نساء أخريات أكثر انتقائية.

والصفات التي يفضلها الناس ليست ثابتة بهذا يتعين على الباحثين عن قرين أن يقدروا الإمكانات المستقبلية للقرين المستهدف والنظر فيما يتجاوز موقعه الراهن، يتعين على المرأة في اختيارها لقرين معين أن تتعامل مع مشكلة تحديد المؤشرات بدقة وتمحيص تفاديا للخداع.

يتطلب انتقاء قرين آليات نفسية تجعل من الممكن جمع الخصال الملائمة مع بعضها بعضا واعطاء كل منها الوزن المناسب من الكل للوصول إلى القرار النهائي حول اختيار رجل معين أو رفضه.

محتوى تفضيلات القرين:

باستحضار هذه الخلفية في الذهن من المناقشة السابقة يتضح لدينا أن قرار الاختيار هي مهمة معقدة، وبالتالي فلا نتوقع إيجاد أجوبة بسيطة على ما تريده المرأة، مع ذلك وكأي موضوع من المواضيع الأخرى فإن علم النفس التطوري لديه أجوبة صلبة إلى حد معقول حول هذا السؤال المتشعب.

1- تفضيل الموارد الاقتصادية:

قد يكون تطور تفضيل الأنثى للذكور الذين يقدمون موارد الأساس الأكثر قدما وانتشارا للاختيار من قبل الإنسان في المملكة الحيوانية، تطور تفضيلات النساء لقرين دائم ذي موارد يتطلب شرطين:

أن تكون الموارد قابلة للزيادة والنمو والدفاع عنها والسيطرة عليها، أن يكون الرجال مختلفين فيما يملكون ورغبتهم في استثمار ما يملكونه في امرأة وأطفالها.

هذه الشروط من السهل استيفائها لدى البشر لكن الاختلاف يكمن في مقدار الموارد التي يتحكمون بها، وكذا مقدار رغبتهم باستثمار وقتهم ومواردهم في علاقة طويلة المدى، فبعض الرجال يفضل الاقتران بعدة نساء مستثمرا القليل في كل منهن، ويفضل آخرون توجيه كل مواردهم نحو امرأة واحدة هذا مكمن الاختلاف.

والالتزام بعلاقة دائمة واحدة غالبا هو ما أمن النساء وأطفالهن عبر مسار تاريخ التطور، أكثر من الدخول في علاقات مع عدة أقران مؤقتين [لا يعلق باس حول إمكان الاقتران طويل مع عدة نساء كما هو مشرع له في الإسلام]، ويقدّم الرجال استثمارا غير مسبوق بين الرئيسيات الأخرى من خلال توفير الموارد والحماية...الخ، ومن غير المرجح أن تتمكن المرأة من تأمين هذه الفوائد من قرين جنسي مؤقت، واحتاجت النساء إلى مفاتيح غير مباشرة

تشير إلى امتلاك الرجل لهذه الموارد من مثل الخصائص الشخصية وقد تكون جسمية وقد تتضمن السمعة، إلا أن امتلاك الموارد الاقتصادية يوفر المفتاح الأكثر وضوحا.

2- تفضيل المستقبل المالي الواعد:

توفر تفضيلات القرين القائمة حاليا نافذة لرؤية ماضينا الاقتراني، وعلى وجه الإجمال ثمنت النساء الموارد المالية بحوالي مئة في المئة أكثر من الرجال، ويظهر في رغبة النساء عبر العالم كله في الموارد المالية في الشريك الزواجي أكثر من الرجال، وقد وفرت نتائج الدراسات أول دليل عبر ثقافي جامع يسند الأساس التطوري لعلم نفس الاقتران البشري، إذ تدعم الكتلة الهائلة من الأدلة التجريبية الفرضية القائلة بأن النساء قد طورن تفضيلا قويا لعلاقة طويلة المدى مع قرين لديه على توفير الموارد.

3- تفضيل المكانة:

تنهال الموارد مدرارة على أولئك الذين في القمة الذين يحملون صفة الرجال الكبار أو الرجال الرؤساء، وتشح تدريجيا بالنسبة لمن هم في القعر، العديد من الثقافات وجدت من المهم اختراع كلمات أو جمل لوصف الرجال ذوي المقام الرفيع كما تدل على مفتاح قوي لملكيته للموارد.

ترغب النساء في الرجال الذين يسيطرون على مواقع عليا لأن المكانة الاجتماعية تشكل مفتاحا كونيا للسيطرة على الموارد وكذا العديد من الفوائد، وفي العديد من الثقافات يغلب أن يكون الرجال ذوي المكانة العالية لديهم دوما ثروة أكبر، وعدد زوجات أكثر، ويوفرون تغدية أفضل لأطفالهم.

تشكل المرتبيات مظهرا عالميا في الجماعات البشرية، وتنزع الموارد لأنها تتراكم لدى أولئك الذين يرتقون في المرتبية، يبدو تاريخيا أن النساء قد حللن شطرا من المشكلة التكيفية الخاصة بالحصول على الموارد من خلال تفضيل الرجال ذوي المكانة العالية.

4- تفضيل الرجال الأكبر سنا إلى حد ما:

يوفر عمر الرجل كذلك مؤشرا على وصوله إلى الموارد، فضلت النساء الرجال الأكبر سنا في 37 ثقافة تضمنها الدراسة، وفضلت النساء الرجال الذين يكبرونهم بحوالي ثلاث سنوات ونصف، كمتوسط عام في كل الثقافات المدروسة، ولكي نفهم لماذا تفضل النساء القرين الأكبر؟ لأن مسألة الوصول الموارد تتغير مع العمر أو المكانة الاجتماعية، ومتغير القوة الجسمية فهي تتغير مع التقدم في السن.

تتضافر كل هذه المفاتيح على شيء واحد وهو قدرة الرجل على الحصول على الموارد والسيطرة عليها، إلا أن امتلاك الموارد ليس كافيا، فتحتاج النساء الى مؤشرات تضمن ديمومة الحصول على الموارد عبر الزمن، وطموح الرجل هو أحدها.

5- تفضيل الطموح والاجتهاد:

يبرهن العمل الجاد الخالص على أنه واحد من أفضل المتنبئات بالدخل والتقدم الماضي منه والمتوقع، رغبة النساء أكثر بكثير من الرجال في قرين يستمتع بعمله، ويبدي توجها لبناء مسار مهني ويكشف عن طموح عال، نزعت النساء في الدراسة التي شملت مختلف الثقافات إلى اعتبار الرجال الذين يفتقرون إلى الطموح باعتبارهم غير مرغوبين إلى أقصى الحدود، بينما الرجال اتخذوا موقفا محايدا من ذلك؛ يدعم هذا الدليل عبر الثقافي وعبر الزمني التوقع التطوري الحاسم بأن النساء قد طورن تفضيلا للرجال الذين يملكون علامات القدرة على تحصيل الموارد.

6- تفضيل الاعتمادية والاستقرار:

من بين 18 خاصية تمثلت ثاني وثالث خاصيتين الأعلى تقويما بعد الحب، يكون طبع الاعتمادية والاستقرار الانفعالي أو النضج، في 21 ثقافة من بين 37 كان لكل من الرجال والنساء مستوى التفضيل ذاته للاعتمادية في الشريك الزوجي وفضلت النساء الاعتمادية أكثر من الرجال في الثقافات المتبقية.

قد تمتلك هذه الخصائص أهمية كبرى بالنسبة النساء لسببين:

الأول أنها مؤشرات موثوقة بأن الموارد سيتم توفيرها بشكل ثابت عبر الزمن.

الثاني أن الرجال الذين يفتقرون إلى الاعتمادية والاستقرار الانفعالي سيوفرون الموارد بشكل متذبذب وينزلون تكاليف انفعالية باهظة بقريناتهم، ولأن الاعتمادية والاستقرار صفات شخصية تشير إلى مزيد من الترجيح بأن موارد المرأة لن تستنزف من قبل الرجل، بهذا تثمن النساء عاليا الاعتمادية والاستقرار الانفعالي كي تؤمن الفوائد التي يمكن أن يوفرها القرين لهن بشكل منتظم عبر الزمن.

7- تفضيل البراعة الرياضية:

تشكل الحماية الجسمية التي يمكن أن يوفرها الرجل، إحدى فوائد التزاوج طويل المدى بالنسبة للمرأة، ويشكل حجم الرجل، قوته، براعته الجسمية، وقدرته الرياضية مفاتيح تؤشر الحلول لمشكلة الحماية، كمثال ينظر على الدوام إلى الرجال الطوال بأنهم أكثر تفضيلا بالنسبة للمواعدة والاقتران.

من المرجح أن يراكم الرجل ذو العضلات المفتولة والقامة الشامخة العديد من الصديقات، بينما أن رجلا هزيلا قصير القامة لا يلقى أي استحسان، وأن الحماية الجسمية كانت إحدى أهم الأشياء التي كان بإمكان الرجل تقديمها إلى المرأة خلال التاريخ التطوري، وتشكل سمات بنية جسم الذكر مثل الطول، عرض الكتفين، والعضلات المفتولة للقسم الأعلى من الجسم جاذبية جنسية للنساء، كما أنها تردع بقية الرجال.

8- تفضيل الصحة الجيدة والمظهر الجسمي:

قد يحمل القرين غير المعافى خطرا أكبر في أن يصبح عاجزا، وقد يتعرض القرين غير المعافى لخطر الموت المبكر، وقد ينقل القرين غير المعافى أمراضا أو فيروسات معدية للطرف الآخر في العلاقة، مما يعيق بقاءه، أو تكاثره، قد يعدي قرين غير معافى الأطفال من الرباط الزواجي، إذا كانت الصحة قابلة للتوريث جزئيا فإن الشخص الذي يختار قرينا غير معافى قد يتعرض لخطر نقل موروثات صحة لأطفاله أو أطفالها، مما يعرض للخطر فرصهم في البقاء والتكاثر، لكل هذه الأسباب مجتمعة، ليس من المفاجئ أن يعطي كل من النساء والرجال المقام الأول للصحة في القرين الممكن على أنها مهمة جدا.

وكدليل على الصحة الجيدة لابد من علامة جسمية مهمة تدل على الصحة، وتتمثل في درجة تناظر وتناسق الوجه والجسم، وخلال التاريخ التطوري تبين أن هناك أحداثا بيئية متنوعة وشدائد جينية أنتجت انحرافات عن التناظر ثنائي الجانب مما ولد وجوها وأجساما غير متناسقة تدل على اعتلال في الصحة عامة، والتناظر له منافع جينية في الآن عينه ومن خلال انتقاء رجل يحمل ملامح متناظرة، قد تنتقي المرأة جوهريا مكملا جينيا أكثر تفوقا لنقله إلى أطفالها، وكذلك فرضية التناظر يدعمها إثباتات:

أولا: أنه يحصل الأفراد ذوو الوجوه المتناظرة على درجات أعلى على اختبارات الصحة الفسيولوجية، والنفسية والعاطفية

ثانيا: هناك صلة محدودة إنما إيجابية ما بين التناظر الوجهي وأحكام الجاذبية الجسمية لدى كلا الجنسين.

ثالثا: يُعتبر الرجال ذوو الوجوه المتناظرة، أكثر جاذبية للنساء، كما يحظون بعدد أكبر من الشركاء الجنسيين خلال حياتهم.

وجدت رغبة معلنة بالصحة لدى القرين طويل المدى في الثقافات 37 جميعها، لماذا يمكن أن تجد النساء الرجال ذوي المظهر الذكوري جذابين؟ فقط الذكور ذوو الصحة الجيدة يمكنهم أن يبيحوا لأنفسهم إنتاج مستوى عال من هرمونات البلوغ (التستوسترون) خلال نموهم، إذا يكون تفضيل النساء للوجوه الذكورية التي تعتبر في الآن عينه دليلا على الصحة هو جوهريا تفضيل للذكر المعافى، الذي يضمن حياة أطول له، إمدادات بالموارد أكثر موثوقية، احتمالات أقل للإصابة بالأمراض المعدية وكذلك مورثات أفضل يمكن تمريرها إلى الأطفال.

9- الحب والالتزام:

لطالما واجهت النساء المشكلة التكيفية المتمثلة في اختيار رجال لا يقتصرون فقط على امتلاك الموارد الضرورية، وإنما يظهرون كذلك رغبة في تكريس هذه الموارد لهن ولأطفالهن، وقد يكون هذا أكثر إشكالية مع أن الموارد يمكن ملاحظتها إلا أن الالتزام أكثر خفاء، يتطلب الحكم على مقدار الالتزام النظر في مؤشرات تدل على أرجحية الوفاء المستقبلي في توجيه الموارد نحو الزوجة والأولاد، وقد يكون الحب أحد المفاتيح التي تدل على الالتزام.

تاريخيا الحب اختراع حديث نسبيا أدخله الرومنسيون الأوروبيون منذ عدة مئات من السنين خلت، لكن تشير الأبحاث أن هذه الحكمة التقليدية خاطئة جذريا فهناك دليل على أن أفكار الحب، وعواطفه وأفعاله شائعة بين مختلف الثقافات عبر العالم، وللتدليل عليه نستدل بأربعة مصادر: غناء أغاني الحب، فرار العشاق للزواج ضد رغبة الأهل، تقارير المخبرين عن حالات معانات شخصية ولواعج أشواق، والقصص الشعبية التي تصف التعقيدات الرومنسية، والواضح أن الحب ليس ظاهرة مقتصرة على نساء الولايات المتحدة أو الثقافة الغربية.

للالتزام عديد الأوجه التي تدل على طرق خاصة في المشاركة في الموارد، يمثل الوفاء مكونا رئيسيا من مكونات الالتزام، ويشكل الدعم العاطفي وجها آخر من الالتزام، ويستتبع الالتزام تكريس الوقت، والطاقة والجهد لتلبية احتياجات الشريك على حساب تحقيق الأهداف الشخصية، وتمثل أفعال التكاثر كذلك التزاما مباشر بتكاثر القرين الذاتي، وتدل هذه الأفعال التي تعتبر أساسية بالنسبة للحب، على تكريس الموارد الجنسية، الاقتصادية، العاطفية والجينية لشخص محدد.

تتصدر أفعال الالتزام قوائم النساء والرجال إذ يعتبر في صلب الحب، وأن الفرضية تقول أن الالتزام بالرعاية الأبوية للأطفال يشكل إحدى وظائف الحب، وهكذا تتمثل إحدى وظائف تفضيل الأنثى للحب من قبل القرين في ضمان تكريس موارده الوالدية للأولاد الذين ينجبانهما.

ويتوقع أن تعطي النساء مكانة الصدارة للحب في عملية اختيار القرين طويل المدى، فمن بين الخصائص الثماني عشر الممكنة، برهن الانجذاب المتبادل أو الحب أنه الأكثر تثمينا من قبل كلا الجنسين في القرين الممكن، وتمحورت المناطق النوعية من الدماغ التي أظهرت إشعاعا (مما يدل على مزيد من تدفق الدم، ويشير إلى نشاط عصبي) حول منطقة النواة المذنبة والغشاء البطيني تحتوي هذه المناطق على خلايا تنتج الدوبامين، وهي تنشط مناطق المتعة في المخ.

10- تفضيل إرادة الاستثمار في الأطفال:

تتمثل مشكلة تكيفية أخرى حين انتقاء القرين في تقدير إرادة الرجال للاستثمار في الأطفال لسببين:

الأول: ينشد الرجال أحيانا إلى التنوع الجنسي مما قد يوجه جهودهم باتجاه نساء أخريات بدلا من توجيهها نحو الأولاد.

الثاني: يثمن الرجال أرجحية أن يكونوا الأب الجيني الفعلي للطفل وينزعون إلى حجب الاستثمار في الولد حين يعرفون أنه ليس ابنهم أو حين يشكون في ذلك.

- وجدت النساء الرجل الذي يتفاعل إيجابيا مع الطفل أكثر جاذبية باعتباره شريكا زواجيا.

- وجدت النساء الرجل الذي يتجاهل الطفل الباكي متدني الجاذبية باعتباره شريكا زواجيا.

- اتضح أن التقدير العالي للتفاعل الإيجابي لا يعود لمجرد إظهار الرجل لاهتمامات بيتية على وجه العموم.

- تقديرات النساء لجاذبية الرجال باعتبارهم أقرانا ممكنين تزداد من خلال المؤشرات الدالة على عاطفتهم تجاه الطفل.

موجز القول، يبدو أن لدى النساء تفضيلا نوعيا للرجال الذين يظهرون رغبة في الاستثمار في الأطفال، وانجذابهم نحوهم، إلا أن العكس ليس صحيحا.

من ناحية أولى: تمكنت النساء من اكتشاف ميول الرجال نحو الأطفال بدقة عالية، بمجرد النظر إلى صور وجوههم، ومن ناحية ثانية: حكمت النساء على الرجال الذين رأين أنهم يحبون الأطفال، بأنهم جذابين جدا باعتبارهم أقرانا على المدى الطويل، تشير الدراسة إلى أهمية الصفات الأبوية باعتبارها حاسمة في انتقاء النساء لقرين على المدى الطويل.

11- تفضيل التشابه:

يؤدي التشابه إلى الارتباط العاطفي، التعاون، التواصل، السعادة الزوجية، مستوى أدنى من خطر الانفصال، ومن المحتمل كذلك تزايد فرص بقاء الأطفال، ويبدي النساء والرجال على حد سواء، تفضيلات قوية للاقتران، الذين يشاركونهم في خاصية أو أكثر، يترجم تفضيل التشابه في قرارات الاقتران الفعلية، وهي ظاهرة تعرف باسم تزاوج الاشباه، قد يعود تزاوج الأشباه على صعيد المظهر الجسمي إلى الانطباع الجنسي مع الوالد من الجنس المقابل خلال الطفولة، وفي الأخير هناك تزاوج أشباه قوي على مستوى مجمل قيم الاقتران.

12- تفضيلات اقتران إضافية: حس الفكاهة، تجنب سفاح المحارم، ونبرة الصوت.

رغبات النساء أكثر تعقيدا مما تشير إليه التفضيلات السابق ذكرها، إذ هناك اكتشافات جديدة كل عام، نتوقف هنا عند بضعة من أبرزها.

تفضل النساء بوضوح الأقران على المدى الطويل الذين يمتلكون حسا فكاهيا، وللفكاهة عدة أوجه، اثنان منها في قول الفكاهة، وفي الاستمتاع بالفكاهة، وتفضل النساء الرجال الذين يدلون الفكاهة في الاقتران طويل المدى، بينما يفضل الرجال النساء اللواتي يستجبن للفكاهة، لماذا تثمن النساء تحديدا حس الفكاهة في القرين؟

حس الفكاهة هو مؤشر على مورثات جيدة، ويدل على الإبداع وعلى تميز نشاط مهارات معرفية معقدة لم تتعرض للإعاقة من قبل آثار الطفرة السلبية.

يركز طاقم آخر من التفضيلات حول ما تتجنبه النساء في القرين أو تجد أنه لا يطاق، يشكل تجنب سفاح المحارم أحد أهمها على وجه الإطلاق، من المعروف أن التكاثر مع الأقرباء الجينيين يولد ترديا تناسليا أي ذرية تحمل المزيد من المشكلات، تكون

آليات تجنب سفاح المحارم أقوى عند النساء مما هي عند الرجال، مما يتماشى مع نظرية الاستثمار الوالدي.

تستند عدة دراسات الفرضية القائلة بأن النساء يجدن الصوت الرخيم جذابا بشكل خاص لدى القرين الممكن، وجاذبية الصوت الذكري الرخيم تدل على: 1- النضج الجنسي، -2- حجم جسم أكبر، صفة جينية جيدة، -4- كل هذه مجتمعة، والرجال ذوي الأصوات الجذابة يدخلون في علاقات أكثر تبكيرا من غيرهم، ولديهم عددا أكبر من الشركاء، وكذلك يتم اختيارهم بشكل أكثر تواترا منن قبل النساء في علاقات عابرة، إلا أن هذا التفضيل هو أكثر محورية بالنسبة للاقتران قصير المدى، عنه بالنسبة للاقتران طويل المدى.

تأثيرات السياق على تفضيلات النساء للقرين:

لا يتوقع من منظور تطوري، أن تعمل التفضيلات بشكل أعمى بمعزل عن السياق أو الوضعية.

1- آثار موارد النساء الشخصية على تفضيلات القرين:

تبعا لوجهة النظر هذه تبحث النساء عن أقران يملكون القوة، المكانة، والقدرة على الكسب، حيث أنهن نموذجيا مستبعدات عن القوة والوصول إلى الموارد التي تخضع لسيطرة الرجال، تثمن النساء الناجحات مهنيا واقتصاديا في الولايات المتحدة كذلك الموارد لدى الرجل، وأظهرت الدراسة أن النساء الناجحات يضعن قيمة أعلى حتى من النساء الأقل نجاحا مهنيا للأقران الذين يحوزون درجات جامعية مهنية، ولديهم مكانة اجتماعية عالية، ودرجة ذكاء أكبر، والذين يتمتعون بالطول والاستقلالية والثقة بالنفس، وعبرت تلك النسوة عن تفضيل أقوى حتى من النساء الأقل نجاحا على الصعيد المالي لرجال ذوي الدخل العالي، وفي دراسة أخرى تعطي النساء الناجحات مهنيا من مثل طالبات الحقوق والطب أيضا أهمية بالغة لقدرة الكسب عند القرين، لذا فإن مكانة النساء العالية ترتبط إيجابا مع اهتمامهن بالمكانة الاقتصادية الواعدة للرجل.

2- آثار السياق الزمني على تفضيلات النساء للقرين:

قد تستمر علاقة الاقتران طوال الحياة، إنما يغلب أن يكون الاقتران أقصر مدى، لذلك من المهم أن نتبين تفضيلات النساء هل تتغير تبعا للسياق الزمني عبر دراسات عدة، وأشارت النتائج إلى أن السياق الزمني مهم جدا بالنسبة للنساء، مما يحدث تحولا في تفضيلاتهن تبعا لما إذا كن يبحثن عن شريك زوجي أو شريك عابر، ونزعت النساء إلى انتقاء الرجل ذوي سمات الطبع الجيد حين كن يخترن زوجا ممكنا أكثر مما انتقت الرجال ذاتهم حين اختيار شريك عابر، وهكذا أرغمت النساء بالتضحية بجمال الطلعة لصالح الخصال الشخصية.

3- آثار الدورة الشهرية على تفضيلات القرين:

الدورة الشهرية مهمة نظريا لأن فرص المرأة في أن تصبح حاملا تتفاوت بشكل صارخ خلال الدورة، افترض الباحثون أن التفضيلات التي تحدث خلال مرحلة الإباضة (احتمال الحمل) قد تعكس اختيار القرين على أساس المورثات الجيدة، فحين تكون النساء في أكثر لحظات الحمل ترجيحا، تصبحن منجذبات على وجه الخصوص للرجال الذين تبدو علائم الذكورة على وجوههم بفعل التستوسترون (الهرمون الذكري)، وهي علامة يمكن أن تروج بدقة لتمتع الرجل بجهاز مناعة معافى.

اكتشف تحول آخر خلال الدورة الشهرية من خلال حاسة الشم عند المرأة، لا يقتصر الأمر على امتلاك النساء لحاسة شم أقوى من الرجال، وإنما تصل حدة الشم ذروتها عند النساء في مرحلة الإباضة أو قبلها مباشرة، وأعطت النساء تقديرا لكل قميص لناحية مدى جودة رائحته أو سوئها، وتمثلت النتيجة

المدهشة في أن النساء حكمن بأن القمصان التي ارتداها الرجال ذوو الوجوه المتناظرة المتناسقة ألطف رائحة وبالنسبة لبعض النساء أقل تنفيرا، أتى هذا الحكم فقط حين حدث أن كانت النساء في مرحلة الإباضة من دورتهن الشهرية، تعتقد النساء في حالة الإباضة أن الرجال المتناسقين يتمتعون برائحة جذابة جنسيا أو على الأقل أكثر جاذبية من الرجال غير المتناسقين، قد يعكس كلا التحولين تكيفات لدى النساء لأن تخصبن من قبل أكثر الرجال صحة.

4- آثار قيم قرين النساء على تفضيلاتهم للقرين:

تشكل جاذبية المرأة الجسمية وشبابها مؤشرات على قيم قرينها أو مرغوبيتها بالنسبة للرجال وكنتيجة لذلك فإن النساء الشابات والأكثر جاذبية جسميا يكون لديهن عدد أكبر من خيارات الاقتران، بالتالي تصبحن أكثر انتقائية في خياراتهن، واختبرت هذه الفرضية بعدة دراسات على عدة ثقافات وكنتيجة عامة لهذه الدراسات، نزعت النساء اللواتي يعتبرن أنفسهن ذوات قيمة أعلى في نظر الرجال، إلى وضع معايير حد أدنى أكثر ارتفاعا فيما قد يطلبنه من قرين على المدى الطويل، وكذا تفضل النساء ذوات القيمة الأعلى كقرينات، الرجال ذوي القيمة الأعلى على صعيد الاقتران، كما تنعكس في الذكورة، التناظر، وعدد بارز من الصفات التي تسهم في مرغوبية الرجال.

خلاصة القول لقد تم استكشاف أربعة سياقات لجهة تأثيرها على تفضيلات النساء، ويتعلق السياق الخامس الذي اكتشف حديثا بالموقع الجغرافي، فتضع النساء اللواتي يعشن في المدن أكثر اكتظاظا بالسكان، وكذلك المدن التي ترتفع فيها تكاليف المعيشة، مطالب أكبر على الموارد في القرين المرغوب في إعلانات الزواج التي ينشرنها، وكل هذه السياقات تشكل ملامح مخطط متخصصة لحل مشكلات التكيف المعقدة المتعلقة بانتقاء القرين.

كيف تؤثر تفضيلات النساء لقرين على سلوك الاقتران الفعلي:

كي تتطور التفضيلات يتعين أن تؤثر على قرارات الاقتران الفعلية، لأن هذه القرارات هي التي لها عواقب تكاثرية، إلا أنه ولأسباب عدة لا يلزم أن تبدي التفضيلات تطابقا كاملا مع سلوك الاقتران الفعلي، لا يستطيع الناس دوما الحصول على ما يريدون وذلك لأسباب متنوعة منها أن: هناك عدد محدود من الأقران الممكنين، قيمنا الذاتية المتعلقة بالقرين، تأثيرات الأهل والأقارب أحيانا على قرارات المرء التزاوجية، والتفصيلات الشخصية، ومع كل ذلك تكون تفضيلات الاقتران قد أثرت على قراراتهن التزاوجية الفعلية بعضا من الوقت خلال مسار التاريخ البشرية التطوري، وإلا لما كانت قد تطورت، وهذه عدد من المؤثرات:

استجابات النساء لإعلانات الرجال الشخصية - زواجات النساء من رجال ذوي مناصب مهنية عالية - زواجات النساء من الرجال الأكبر سنا - آثار تفضيلات النساء على سلوك الرجال.

(*) - أحمد راسنعامة، ماستر علم النفس، جامعة غرداية. عرض للفصل الرابع من كتاب علم النفس التطوري، ديفيد باس، بعنوان: استراتيجيات النساء في الاقتران طويل المدى، ص 237-296

الرعاية الأبوية للأبناء

صفية بافولولو(*)

طُرِح تساؤل في بداية الفصل حول: لماذا توفر الأمهات نموذجيا رعاية والدية أكثر من الآباء؟

أجريت تجربة في مجتمع الكيبتوز من قبل عالمي الأنتروبولوجيا جوزيف شيف وليونيل تايغر لمعرفة إمكانية تنشئة الأطفال جماعيا من قبل الجماعة، فكانت نتائج التجربة المتمثلة في تنشئة الطفل جماعيا لصدارة رباط الأم – الطفل وهو الأمر السائد في كل الثقافات.

فمن المنظور التطوري، الذرية هي نوع من العربة الناقلة لوالديها والوسيلة التي تنقل الموَرثات الوالدية إلى الأجيال المتعاقبة، فبدون الذرية قد تفنى مورثات الفرد إلى الأبد، ونظرا لأهمية الذرية يسعى الأهل لتأمين بقاء أطفالهم وتكاثرهم بآليات والدية مكيفة بهدف رعاية الذرية.

ومع هذه الأهمية إلا أن هناك العديد من الأنواع لا تنخرط فيها مطلقا (فمثلا حيوان المحار يقوم بإفراز المني والبويضات في المحيط بدون أدنى رعاية والدية)؛ ومن أسباب نقص الرعاية الوالدية، الكلفة الباهضة التي يخسرها الأهل من الموارد التي يمكن أن يسخروها لأنفسهم أو بإمكانهم إيجاد المزيد من الأقران من خلالها.

تم اكتشاف تطور الرعاية الوالدية في الأنواع غير البشرية، فنجد أنثى الخفاش الأمريكي طورت آليات حساسة لاكتشاف صغارها من بين الخفافيش الأخرى وتقدم تضحيات هائلة لتغذيتهم لتأمين بقاءها؛ ولدى الطيور ذوات الأعشاش تتمثل الرعاية الوالدية في إزالة قشور البيوض المفقسة حديثا بهدف حماية صغارها من المفترسين لغرض زيادة بقاء الفراخ، لكن ورغم هذه الأهمية للرعاية الوالدية إلا أنها ظلت موضوعا مهملا نسبيا في مجال علم النفس البشري.

بعد هذه المقدمة نعود إلى سؤالنا: لماذا توفر الأمهات رعاية والدية أكثر من الآباء؟

عند ملاحظة عالم البيولوجيا التطورية جون آل كوك (1993) للرعاية الوالدية لكلاب إفريقيا الوحشية وجد أن الإناث يغلب عليهن العناية بذريتهن أكثر بما لا يقاس من الذكور (تُعرِّض الأم حياتها للخطر لإنقاذ جرائها بينما يقف الأب لا مباليا)، وقرر باس أن البشر لا يشكلون استثناءاً لحقيقة أن النساء تهتم بأطفالها بكثافة أكبر مما يقدمه الرجال وذلك في كتابه "تطور الرعاية الوالدية".

بعد معرفة أن الأمهات يقدمن الرعاية الوالدية بأكثر من الآباء، نطرح التساؤل التالي: لماذا الامهات أكثر من الآباء؟ هناك فرضيتان لتفسير التساؤل وهما:

1. فرضية عدم التأكد من الأبوة :

عندما تضع الأنثى مولودا أو تبيض بيضة ملقحة فإنها متأكدة بأن ذريتها تتضمن 50٪ من مورثاتها، إلا أن الذكر غير متأكد من ذريته، احتمال أن تكون الأنثى قد اقترنت مع ذكر آخر... لذلك عدم التأكد من الأبوة تفسير لغلبة الاستثمار الأنثوي على الاستثمار الذكري في الرعاية الوالدية.

2. فرضية كلفة الاقتران:

تكاليف فرصة الاقتران الناجمة عن الرعاية الوالدية ستكون أكبر بالنسبة إلى الذكور مما هي بالنسبة إلى الإناث، فإن قيامهم بالرعاية الوالدية سيقل عما هو الحال لدى الإناث.

أولا: منظور تطوري في الرعاية الوالدية:

كما قلنا سابقا أن الذرية هي العربة الناقلة لمورثات الوالدين إلى الأجيال المقبلة ولكن ليس كل ذرية تتكاثر، بعضها أفضل حظوظا في البقاء.. ومن العوامل التي تتأثر في تطور الوالدية مايلي:

أ. صلة القرابة الجينية مع الذرية:

وجد كل من دالي و ويلسون (1988) تأثير صلة القرابة الجينية على الدافعية الوالدية، حيث تفاعل الآباء غير الطبيعيين مع أطفالهم غير الطبيعيين كان أكثر عدوانية مما هو الحال مع الآباء الجينيين وأطفالهم، وتكون النتيجة أن الأطفال غير الطبيعيين يغادرون المنزل في عمر أصغر من الاطفال الجينيين. ويلاحظ هذا الصراع في كثير من قصص الأطفال والفولكلوري عبر العديد من الثقافات.

في الجنس البشري (التخصيب الأنثوي الداخلي) تكون الأمومة أكيدة 100٪ لكن الأبوة في شك، حيث يكون للرجل مصدران للمعلومات للتأكد من أبوته، هما:

- معلومات حول إخلاص شريكته الجنسية خلال فترة الحمل.

- إدراكات شبه الطفل به.

تقوم الأم بترويج اعتقاد الرجل بأنه والد الطفل من خلال التصريح بأن ملامح المولود الجديد تشبه والده. هذا ما أكدته تجارب دالي و ويلسون ونتائج تجارب أخرى، وجد أن الأمهات والأقارب يحاولون التأثير في إدراكات الأب حول أبوته بغية تشجيع الاستثمار الذكري في الطفل، وبالمثل فالآباء الذين يدركون أن أطفالهم يشبهونهم يصرحون عن استثمار أكبر كثافة في أطفالهم (الاهتمام بهم وصرف المزيد من الوقت معهم..) وعلى العكس ففي دراسة أخرى وجد أن الرجال الذين قدروا أن أطفالهم لا يشبهونهم كانوا أكثر ميلا إلى إلحاق الأذى الجسدي لهم.

- الاستثمار الوالدي في الأطفال:

تمثلت دراسة الأنتربولوجيين أندرسون وكابلان ولانكستر (1999) للتأكد من الأبوة لدى الرجال من خلال استثمارهم في التعليم الجامعي للأولاد، وبعد وضع 3 تنبؤات وجد أن: الرجال قد يخصصون المزيد من الاستثمار في أطفالهم الجينيين، وأن الآباء غير متأكدين الأبوة يستثمرون أقل من الرجال المتأكدين من الأبوة، ووجدوا أيضا أن الرجال يستثمرون بدرجة أكبر في أطفال من قريناتهم الحاليات بغض النظر عمن هما الوالدان الجينيان، أي الرجال يستثمرون أكثر في الأولاد تبعا لعلاقة الاقتران مع الأم، هذا ما أكدته دراسة في كيب تاون (جنوب إفريقيا) ودراسة فرانك مارلو (1999)؛ وُجِد أن تشكُل القرابة الجينية للطفل من خلال الاستثمار المالي للرجل حيث يكون الاستثمار في الأطفال الجينيين أكبر مما هو الحال في الأطفال غير الجينيين، ويكون هناك المزيد من الاستثمار عندما يتأكدون من الأبوة الجينية.

إساءة معاملة الطفل بسبب عدم العيش مع كلا الوالدين:

وجد دالي و ويلسون أن الإقدام على قتل الطفل يكون عند الراشد الأقل قرابة جينيا من الطفل، ووجدت كثير من الدراسات أن الأطفال يتعرضون لسوء المعاملة وللقتل بشكل أكبر عندما يعيشون مع والدين غير جينيين مما يتعرضون عندما يعيشون مع كلا الوالدين الجينيين، فنجد أن "القرابة الجينية –تشكّل- منبئا قويا بالاستثمار الوالدي وبإساءة معاملة الأطفال".

الفروق بين الجنسين في التكيفات الوالدية:

من خلال دراسة مايستريبياري وبيلكا (2002) ودراسة باتشوك ودراسة تشيلي تايلور، لاحظوا بوجود فروق بين الجنسين في التكيفات الوالدية، هذا لا ينفي أن الرجال لا يوفرون الرعاية الوالدية

لكن قرابة الامهات الجينية أكبر من قرابة الآباء لأولادهم .

ب. قدرة الآباء على تحويل الرعاية الوالدية إلى نجاح تكاثري :

وجد عالم النفس التطوري ديفيد جياري من خلال ملاحظته أن الاستثمار الوالدي يؤثر على حسن الحال الاجتماعي للأطفال، فمن العوامل التي مكنت الطفل من استخدام الرعاية الوالدية على أحسن وجه نذكر منها عاملين (حسب دالي وويلسون):

أ- الرعاية الأمومية القائمة على صحة الطفل: وجدت العالمة جانيت مان أن الأمهات يوجهن استثمارا أموميا أكبر نحو المواليد ذوي القيمة الإنجابية الأعلى حيث حالة الطفل الصحية تؤثر على درجة سلوك الأم الإيجابي.

ب. سن الطفل: فالأطفال الأصغر سنا ذو قيمة إنجابية أدنى من الأكبر سنا، لذلك كلما صغر سن الطفل ارتفع احتمال قتله من قبل الوالدين.

- الاستثمار في الصبيان مقابل البنات :

قد يؤثر كون الطفل صبيا أو بنتا على تحويل الرعاية الوالدية إلى نجاح تكاثري وفق فرضية ترايفرز-ويلارد، حيث عندما يكون الوالدان في وضعية جيدة سينجبان المزيد من الصبيان، وعندما يمتلكان القليل من الموارد لاستثمارهما سيتعين عليهما إنجاب البنات، حسب النظرية الوضع الجيد للإنسان يؤثر على نجاح الذكور التكاثري أكثر من نجاح الاناث التكاثري، لكن الكثير من الدراسات نفت هذه الفرضية ولم يجدوا دليلا وسندا لفرضية ترايفرز-ويلارد.

ج. الاستخدامات البديلة للموارد المتوفرة للاستثمار في الأطفال:

إن الجهد المبذول لرعاية الأطفال لا يمكن أن تخصص لمشكلات تكيفية أخرى (كاجتذاب أقران إضافيين أو استثمار في أقارب آخرين...) لأن الجهد والطاقة ناضبان ومحدودان، لابد وأن يوجها لنشاط معين، هناك عاملان يجعلان المرأة تكرس الطاقة الذاتية لمشكلات تكيفية أخرى وهما:

أ. عمر المرأة: فحص دالي و ويلسون (1988) فرضية أن عمر المرأة يؤثر على الاستثمار في الأبناء واستخدام قتل الأبناء كمعيار للاستثمار الأمومي ووجدوا أن نسبة قتل الأبناء مرتفع بين النساء الشابات اللواتي لديهن الفرص للإنجاب المستقبلي، وهو الأدنى بين النساء الأكبر سنا اللواتي ليس لديهن إلا القليل من فرص الإنجاب، لذلك نجد أن النساء الأصغر سنا يستطعن استخدام مواردهن لأغراض أخرى (كتكريس الجهد لاجتذاب أقران مستعدين للاستثمار فيهن..) بينما النساء الأكبر سنا يتجهن نحو الاستثمار المباشر في الأبناء ولو على حساب مشكلات تكيفية أخرى.

ب. حالة النساء الزوجية: اقترح دالي وويلسون (1988) أن حالة المرأة الزوجية ستؤثر على احتمال ارتكابها لقتل الطفل، فبعد فحص هذا التنبؤ باستخدامHRAF وجدوا أن حالة المرأة غير متزوجة سببا قاهرا لقتل الطف، بينما تحتفظ النساء المتزوجات بأطفالهن ويستثمرن فيهم.

- الجهد الوالدي في مقابل مسعى الاقتران :

عندما ينجح الرجال للوصول إلى قرينات إضافيات (أي ينجحون في الاقتران) يمكنهم إنجاب المزيد من الأطفال، بينما لا تتمكن النساء من ذلك، لذلك من المرجح أن توجه النساء أكثر من الرجال الطاقة والجهد والوالدية.

بعد عدة دراسات عبر الثقافات المختلفة وجد أن الرجال يوجهون استثماراتهم نحو الاقتران وتوجه النساء استثماراتهن نحو الوالدية، وحين يكرس الرجل جهدا للوالدية فإنه يسعى من خلالها إلى الاقتران أكثر من كونه وسيلة لمساعدة الطفل، أي

أن الرجال يوجهون الجهد نحو الطفل في محاولة لاجتذاب المرأة.

ثانيا: نظرية صراع الوالدين- الذرية:

وفق ترايفرز (1974) توقع قيام صراعات بين الوالدين والأبناء عند التنشئة الاجتماعية، تستطيع القرابة الجينية ما بين الوالدين والأبناء ممارسة ضغط انتقائي يدفع إلى رعاية والدية مكثفة، لذلك سيتباين الوالدان والأبناء على صعيد التخصيص المثالي لموارد الوالدين في الأبناء، لذلك يطلب الأبناء المزيد لأنفسهم مما يريد الأهل تقديمه لهم، وصراع الوالدين- الطفل من المتوقع أن يحدث في كل مراحل الحياة وليس في فترة محددة (كمرحلة المراهقة).

- صراع الأم- الذرية في الرحم :

وجد أن صراع الوالدين- الأبناء يبدأ قبل المراهقة والطفولة بوقت طويل، إنه يبدأ في رحم الأم، وهو ما يسمى بصراع الأم- الجنين، يبدأ هذا الصراع حول إذا ما كان الجنين سيجهض تلقائيا، فالأمهات قد طورن آليات لكشف تشوهات كروموزومية في الجنين، إذ للأم أن تحد من خسائرها في وقت مبكر، لذلك يتم الاجهاض قبل الاسبوع الثاني عشر من الحمل، إلا أنه من منظور الجنين يفعل كل ما باستطاعته كي يغرس ذاته في جدار الرحم، ليتجنب الإجهاض التلقائي، وذلك بإنتاج الجنين لهرمون منشط المشيمة HCG لمنع الأم من الحيض، وبالتالي يتيح للجنين لأن يظل منغرسا في الرحم.

وبعد نجاح الانغراس في جدار الرحم يتطور صراع حول الأمداد بالطعام، إذ عندما يدرك الجنين بحاجة أنه إلى المزيد من الغذاء من الأم فإنه يفرز مواد في مجرى دمها لتسبب انقباض شرايينها ويتسبب في تضييق سعة شرايين الأم مما يؤدي إلى زيادة ضغط دم الأم لكي يتدفق المزيد من الدم إلى الجنين، أي أن الجنين طور آليات لصالحه ولو على حساب إلحاق الاذى بالأم.

- زيارة ثانية لعقدة أوديب :

تشكل عقدة أوديب حسب فرويد (1900/1953) مصدرا محوريا للصراع ما بين الأبناء وآبائهم، حيث ما بين السن الثانية والخامسة ينمي الطفل تعلقا جنسيا بالأم، وهذا التعلق الجنسي سيضع الطفل في حالة من صراع مع الأب، وينتج عنه رغبة الابن اللاواعية في قتل أبيه (المنافس الجنسي للطفل).

تتناقض عقدة أوديب مع نظرية ترايفرز (1974) في صراع الوالدين- الذرية، كليهما تتنبأن بوجود صراع والدين- طفل، إلا أنهما تختلفان في المحور، إذ أن الصراع في نظرية فرويد حول الوصول الجنسي إلى الأم ويكون الصراع مع الوالد من الجنس نفسه، بينما الصراع في نظرية ترايفرز هو حول كمية الاستثمار الوالدي.

(*) ماستر علم النفس، جامعة غرداية، قراءة في الفصل السابع من كتاب علم النفس التطوري، ديفيد باس بعنوان: مشكلات التنشئة الوالدية، ص 401-458

التنافس على الموارد أساس العدوان والحرب

محمد عوف(*)

يبدأ الكاتب بسرد أحداث هجوم مجموعة من قرود الشمبانزي على قرد آخر للتعدي عليه (تنزانيا 1974)، هذا الهجوم لافت للنظر لأنها كانت المرة الأولى التي يشهد فيها ملاحظ بشري غارة شمبانزي على مجال حيوي مجاور مع نتائج مهلكة، هذه الحادثة أدت الى التشكيك في الفرضيتين القائلتين أن:

1. البشر وحدهم من يقتلون أبناء جنسهم.

2. الشمبانزي يمثل الوجود الوديع المجسد للبراءة الأولية التي فقدها الإنسان.

بالرغم من أنه يتعين علينا الحذر من الوقوع في مقارنات سطحية بين البشر والشمبازي إلا أن من بين ملايين الأنواع من الحيوانات تم توثيق نوعين فقط يبديان ائتلافات منسقة بمبادرة من الذكور للغارة على مجالات حيوية مجاورة (حسب فرنغهام وبرستون) البشر والشمبانزي.

يمتلئ التاريخ البشري بأمثلة من تضامن الرجال معا للدفاع أو الهجوم، لذلك من الطبيعي أن يتبادر إلى أذهاننا هذا النوع من الأسئلة، ماهو مصدر العدوان البشري؟ ماهي الأنماط الكبرى للعدوان؟ من ضد من؟ تحت أي ظروف؟

العدوان بمثابة حل لمشكلات تكيفية : (يبدأ الكاتب بعرض الفرضيات الست التي تعد سببا للعدوان ثم يعرج بعد ذلك إلى نتائج تجريبية تؤكد صحة هذه الفرضيات.)

0. الاستيلاء على موارد الآخرين : استخدام العدوان أو التهديد بالعدوان قصد الحصول ومراكمة موارد ذات قيمة للبقاء والتكاثر، يلجأ الذكور أكثر من الإناث الى استعمال العدوان الجسدي بغية الإستيلاء على موارد الآخرين، ويبرز الفارق بين الجنسين في سن مبكر يبدأ من العمر 3 سنوات؛ فغالبا مايشكل الناس، الرجال خصوصا ائتلافات لأغراض سلب موارد الآخرين والغنائم تعود للمنتصر.

1- الدفاع ضد الهجوم : الضحايا معرضون لخسارة الموارد الثمينة، الجروح، الموت وهو مايعيق التكاثر والبقاء كما يمكن أن تكون الخسارة على مستوى السمعة والشرف والتي قد تؤدي الى المزيد من العدوان من قبل الآخرين، يرى الكاتب فرضية استخدام العدوان للدفاع ضد الهجوم وقد يكون العدوان على الهجوم في هذه الحالة حلا ناجعا يمنع الاستيلاء على الموارد الذاتية عنوة أو لتكوين سمعة تردع المعتدين.

2. انزال الغرم بالمزاحمين من الجنس ذاته : يلجأ البشر للعدوان أيضا بغية الحصول على أعضاء ذوي أهمية من الجنس الآخر، وهو ما نراه في التحرش العنيف بالرجل الأضعف، أو القتل بسبب التحرش أو العدوان عقابا لمن يحاول التقرب من قريناتهم.

3. التفاوض حول المكانة والمرتبة : تنص هذه الفرضية على أن العدوان يقوم بوظيفة زيادة المكانة الذاتية ضمن الترتيبات الاجتماعية الموجودة، وهو معروف في بعض القبائل (الآش، الباراغواي) في قتال الهراوات ومن يصمد في عدة جولات يحظى بمكانة وهيبة، وهو ما نراه أيضا في الملاكمة أو في الرجال العائدين المشاركين في الحروب، أو في عصابات الشوارع حيث يخبر الأعضاء الذين يظهرون وحشية للارتفاع في المكانة؛ وتبقى المسالة نسبية فقد يؤدي العدوان إلى الحط من المكانة، فالأستاذ الذي يسدد لكمة لأستاذ آخر يحط من قدره في الأوساط الأكاديمية.

4. ردع المزاحمين عن العدوان المستقبلي: سمعة العدواني تقوم بوظيفة ردع الآخرين، مما يحل مشكلة سلب المرء موارده وقريناته.

5. ردع القرين الطويل المدى عن الخيانة الزوجية: توثق دراسات الملاجئ للنساء اللواتي تعرضن للضرب الزوجي المتكرر أن السبب الرئيس هوالغيرة الشديدة من قبل أزواجهن أو أصدقائهن، لردعهن عن معاشرة رجال آخرين.

6. خصوصية سياق العدوان: ويقصد به أن الحالات الست للعدوان كحل لمشكلات تكيفية لا يمثل استراتيجية متجاهلة للسياق بل من المرجح أن العدوان مشروط إلى حد بعيد بسياق نوعي يتفجر فقط في سياقات ومواقف مشابهة لتلك اللتي جابهها أسلافنا واتخذوا العدوان كحل لها وجنوا منها منافع خاصة.

كمثال ضرب الزوجة من المحتمل أن يكثر عند الرجال ذوي المكانة الأدنى من زوجاتهم أو في مواقف مثل خسارة وظيفة أونقص موارد.. وهي السياقات التي قد تتسبب في فقدان قريناتهم.

يتعين كذلك مقارنة أو تقويم المنافع المترتبة عن العدوان ضمن سياق التكاليف، فمثلا إنزال عدوان بالآخرين يترتب عليه الانتقام مما يؤدي إلى حلقات العدوان والعدوان المضاد، لذلك نجد بعدا آخر للكلفة وهو قدرة الضحية على الانتقام ورغبتها فيه (لذلك يكثر التسلط على الضعاف وعديمي النفوذ..)، كما ينتمي إلى سياق التكاليف أيضا عواقب العدوان المتعلقة بالسمعة، وهنا تختلف الثقافات والأوساط فيما إذا كان العدوان يعزز مكانة أو يحط منها كمثال المجتمعات التي ينتشر فيها قتل الشرف أوالأوساط الأكاديمية أوعند عصابات الشوارع.

ومنه فإن النقطة المفتاح في المنظور النفسي التطوري بأن العدوان يتركز على آليات نفسية متطورة حساسة للسياق وليس تعبيرا جامدا لا يتغير بل يعتمد على (سياق التكلفة - المنفعة الخاصة) فقد تبقى الآليات المولدة للعدوان كامنة طوال حياة الفرد إذا لم تصادف سياقات ملائمة لانطلاقه.

لماذا الرجال أعنف في عدوانيتهم من النساء؟

في كل الثقافات يشكل الرجال الغالبية العظمى من القَتَلة كما أن أغلب ضحاياهم من الرجال أيضا، فلماذا ينخرط الرجال في أشكال عنيفة من العدوان أكثر من النساء؟ ولماذا اغلب ضحاياهم من الرجال؟

0. التنافس ضمن الجنس الواحد: تشكل الإناث موردا ثمينا على صعيد التكاثر بالنسبة للذكور، (فسقف التكاثر بالنسبة للذكور هو أعلى بما لا يقاس به بما هو بالنسبة للإناث) وهذا التباين في التكاثر هو ما يؤدي إلى التعدد، وهو ما يؤدي أيضا الى الصراع في الجنس الواحد لتحصيل أكبر عدد من الإناث لنقل جيناتهم، والتعدد يعني بطريقة أخرى أن بعض الذكور ينالون أكثر من نصيبهم (العادل)، بينما يحرم ويستبعد آخرون عن الإسهام في أسلاف الأجيال المستقبلية، وبالتالي هناك وجهان لاستخدام العدوان في السياقات التنافسية المتسمة بتعدد الزوجات:

- عدوان من قبل ذكر كي يسود ويحصل على أكبر عدد من القرينات.

- عدوان لتجنب الفشل الكلي في التكاثر من خلال الحرمان من الاقتران.

ورث البشر المحدثون الآليات النفسية التي أدت إلى نجاح أسلافهم، ولا يعني هذا أن لدى الرجال رغبة واعية أو لاواعية في زيادة نجاحهم التكاثري كما لا يعني أيضا أن لدى الرجال (غريزة عدوان) بمعنى نوع من الطاقة الحبيسة التي يتعين إطلاقها، وإنما ورث البشر آليات نفسية حساسة لسياقات من المحتمل أن يؤدي العدوان فيها إلى حل ناجح لمشكلة تكيفية، وهذا يفسر كون الذكور أكثر

عدوانا لأنهم نتاج تاريخ طويل من تعدد الزوجات المتصف باستراتيجية العدوان ضمن الجنس الواحد للحصول على الإناث، ويفسر أيضا كون الرجال هم الضحايا الأغلب في العدوان لأنهم في حالة تنافس مع الرجال بالمقام الأول فتذهب الغنائم للمنتصر ويبقى الخاسرون بلا قرين يعانون من الجروح أو الموت المبكر.

تنخرط النساء أيضا في العدوان وضحاياهن من نفس جنسهن من خلال الحط من قدر المنافسات وتشويه سمعتهن من خلال الطعن في مظهرهن الجسمي وبالتالي قيمتهن الإنجابية، تميل النساء إلى العنف اللفظي أكثر نظرا لكون المواليد الصغار يعتمدون على الرعاية الأمومية أكثر، وهكذا يتعين أن تعكس سيكولوجية النساء التطورية مخاوف أكثر من الوضعيات التي تشكل تهديدا جسميا.

أدلة تجريبية على أنماط تكيفية مغايرة من العدوان:

- الدليل على الفروق بين الجنسين في العدوان على الجنس نفسه:

من خلال جدول يضم حالات القتل ضمن الجنس الواحد في مختلف الثقافات نلاحظ أن نسبة القتل بين الذكور عند جميع الثقافات لا تقل عن 93٪ من حالات القتل، وهذا يؤكد كون الرجال يلجؤون الى العنف بأشكال مختلفة وأكثر عدوانية من النساء.

حتى في سن مبكر يلاحظ من خلال تجارب واستبيانات أن العدوان على الجنس نفسه في المدارس متفشي وأكثر عدوانية عند الذكور أكثر منه عند الإناث، كما يلاحظ انتشار العدوان اللفظي بين فتيات الثانوية واستعمال عبارات من مثل (داعرة، فاجرة..) ولكنها غائبة تماما بين تلميذات المتوسطة مما يشير الى بروز التنافس على القرين.

خلاصة القول إن الفروق بين الجنسين في استعمال العنف الجسمي كبيرة ومنتظمة حيث يبرز الذكور في كل دراسة بأنهم الأكثر عدوانية، إلا أن هذا لا يتسع ليشمل العدوان اللفظي.

-متلازمة الذكر الشاب: لوحظ من خلال توضيح تجريبي أجري في الولايات المتحدة الامريكية عام 1975 أن حالات القتل عند الذكور تبدأ مع بلوغ سن المراهقة وتكون في تصاعد سريع حيث تصل قمتها حين يكون الذكور في أواسط العشرينيات من عمرهم، ومنه إلى ما بعدها تبدأ معدلات وقوع الرجال ضحايا في الهبوط مما يشير إلى أن الرجال يبدأون في تجنب التكتيكات الجسمية الخطرة.

ويفسر هذا من خلال نظرة تطورية أن الشبان ميالون إلى المخاطرة بشكل خاص لأنهم يكونون الفئة السكانية التي كانت تتعرض لأشد حالات الانتقاء على صعيد المجابهة التنافسية لدى الأسلاف (استعراض الشاب الباحث عن زوجة براعته الجسمية، الغارات القبلية..) كما تفسر أيضا بكونها استعراضا ليس للنساء فحسب بل للرجال أيضا لتنمية سمعة يكون لها أثرا مستداما فالسمعة المبكرة تنبأ بمستقبل أفضل، موجز القول أن التفسير التطوري القائل بمتلازمة الذكر الشاب يمكن أن يفسر التباينات في العدوان الجماعي، الانبثاق المفاجئ للقوة العضلية لدى الذكور بدءا من سن البلوغ، انبثاق الكفاءات التنفسية الحركية في مرحلة المراهقة وأواسط العشرينيات.

السياقات المطلقة لعدوان الرجال ضد الرجال:

أ- حالة الزواج والاستخدام: أغلب مرتكبي الجرائم من العازبين العاطلين عن العمل ولذلك فالافتقار إلى الموارد والعجز عن اجتذاب القرين على المدى الطويل يبدو بمثابة سياقات مترابطة بحالات قتل الذكور للذكور.

ب- المكانة والسمعة: لوحظ أن العديد من حالات القتل كانت لأسباب يمكن وصفها بالتافهة (بدايتها مشادات كلامية صغيرة) إلا أن السمعة

والشرف أبعد ما تكون عن التفاهة فخسارة مكانة يحتمل نتائج كارثية في سوق البقاء والتكاثر.

ج- الغيرة الجنسية والمزاحمة ضمن الجنس الواحد: عدوان الذكور ضد المزاحمين الذي يصل إلى حد القتل يتجلى أيضا في سياق المشكلة التكيفية المتعلقة بالاحتفاظ بالقرين.

د- السياقات المطلقة لعدوان النساء ضد النساء: يحط النساء من قدر الأخريات المزاحمات لهن في سياق التنافس على الاقتران، وغالبا لا يتعدى العدوان اللفظي وتشويه الصورة والسمعة.

ج- السياقات المطلقة لعدوان الرجال ضد النساء: الغيرة الجنسية هي السبب الرئيس، فالرجال الذين يقتلون زوجاتهم أو عشيقاتهم يقومون بذلك إما لملاحظة خيانة جنسية أو الشك فيها (وهو ما يضعه خطر استثمار موارده المحدودة في ذرية لا تمت إليه بصلة) أو حين تقدم المرأة على إنهاء العلاقة (وهو ما يمثل خسارة امرأة ذات قيمة انجابية لصالح غريم)، لا يحضر هذا المنطق التكييفي بالطبع في أذهان الرجال إلا أنهم يحملون معهم آليات نفسية أدت إلى نجاحات أسلافهم.

د- السياقات المطلقة لعدوان النساء ضد الرجال: قد يبدو أن النساء نادرا ما يقمن بعدوان عنيف ضد الرجال إلا أنه في تقارير العدوان الزوجي غالبا ما تتساوى النسب المؤية تقريبا للضحايا من الذكور والإناث، إلا أن ارتكاب النساء للعدوان العنيف مثل القتل أقل تكرارا، ويتكرر بدلا من ذلك الصفع والبصق وإطلاق الألقاب ...، وترتبط سياقاته في الأغلب بدفاع المرأة عن نفسها ضد زوج هائج بصدد خيانة أو شك بالخيانة، أو بعد تاريخ مديد من الاعتداءات الجسمية التي لا ترى المرأة لنفسها مخرجا من سطوة زوجها المستبد إلا القتل.

هـ- الحرب: هي نشاط يمارس حصريا من قبل الرجال ويكون الرجال الآخرون هم الضحايا المستهدفون، فهي مغامرة تعاونية لا يمكن أن تقوم بدون تحالفات في كل طرفيها.

تقوم النظرية التطورية الخاصة بالحرب على 4 شروط جوهرية يعين أن تستوفى حتى ينطلق العدوان.

1- أن تكون المكاسب على المدى البعيد على صعيد موارد التكاثر أكبر من التكاليف الناجمة عن الحرب، أي يجب أن يكون المورد التكاثري (النساء) كبيرا بما فيه الكفاية لتغطية النقص المحتمل عن الحرب، وبالتالي قد يشكل الوصول الجنسي حافزا ومكسبا من خلال الحرب.

2- يتعين على أعضاء المجموعة المحاربة أن يعتقدوا أن جماعتهم ستنتصر، وكذلك الاعتقاد أن الموارد بعد الحرب سوف تكون أكبر مما كانت عليه من قبل.

3- يتعين أن يترجم المخاطرة والجهد الذي يبذله كل عضو إلى منافع ومغانم، فالرجال الذين لم يشاركوا في الحرب يتعين أن يستبعدوا عن غنائم الانتصار، أما الرجال الأكثر مخاطرة فلهم القسط الأكبر من الغنائم والسمعة...

4- يجب أن يكون احتمال الموت موزعا بقدر متفاوت عشوائيا بين أعضاء المجموعة (حجاب الجهل) فلو علم شخص بموته المحقق المحتوم قبل ذهابه لامتنع من الذهاب قطعا (وهو مانراه في الفرار من ساحة الحرب عند تيقن الخسارة).

من خلال النظرة التطورية في الحرب يمكن التنبؤ بعدة نقاط منها:

الرجال ينخرطون في الحرب: لم يلحظ أبدا في أي ثقافة مضت تشكيل ائتلافات أو مجموعات نسائية مصممة لقتل بشر آخرين وهو ما يبدو منسجما مع

هذه النظرية، فالرجال تتشكل لديهم آليات نفسية متطورة مصممة للدخول في الحرب الجماعية.

من المرجح أن يقدر الرجال عفويا قدرتهم القتالية: إذا كان الرجال قد انخرطوا تكرارا في عدوان عنيف أكثر من النساء خلال مجرى التاريخ، يمكن أن نتوقع أن للرجال آليات تمكنهم من معرفة إذا كان من الحكمة أم لا الانخراط في حرب أو عدوان.

لدى الرجال تكيفات تساعدهم على الدخول في الحرب: وهو معروف بتفوق الرجال في البنية الجسدية على النساء، وقدرتهم عل تشكيل ائتلافات ومجموعات عكس النساء، وأيضا بعيشهم تجربة الاثارة والحماس قبل الدخول في الحرب من خلال أهازيج وهتافات.

الوصول إلى الجنس باعتباره غنيمة حرب تعود على المنتصرين: وهو ما تم استقراءه من استبيانات لمجموعة عصابات (انطلاقا من السؤال: إذا كان الموت شائعا بين العصابات فما الذي يدفع الرجال للانضمام إليها؟) ومقارنته مع جماعة من المجتمع المحلي ذاته، ومما يمكن استنتاجه أن الشريكات الجنسيات لأعضاء العصابة خلال شهر واحد أكثر مما لدى الرجل المتوسط خلال سنة كاملة، كما يلاحظ أن العديد من الحروب والغارات كانت شرارتها امرأة وهذا يدعم فرضية أن الوصول الجنسي للنساء يمثل موردا تكاثريا مهما.

ماهي الصفات التي ينشدها الرجال والنساء في الحلفاء الائتلافيين؟

من خلال دراسة استخدمت على عينة من الطلاب الأمريكيين تبين أن الرجال يختارون أعضاء الائتلاف على أساس الصفات التي تساعد في النجاح خلال عدوان بين مجموعة وأخرى من قبيل أن يكون مقداما في وجه الخطر، أن يكون قوياجسميا، أن يكون مقاتلا جيدا..، في حين كان ميل النساء إلى هاته الصفات ضعيفا، واتفقوا (الرجال والنساء) على صفات مشتركة من مثل أن يكون مثابرا على العمل، أن يكون ذكيا، متفتح الذهن، قادرا على تحفيز الناس ...

هل لدى البشر آليات متطورة للقتل الانساني:

تحدث سنويا جرائم قتل بأرقام مهولة، ولكن ماذا عن الجرائم التي لم تحدث، أي تلك التي لم تتجاوز التخيلات والأفكار؟ تكشف دراسات أجريت حول عدد مرات التفكير في القتل ومَن المقصود بالقتل وكيف؟ لمجموعة من طلاب السنة الأولى بالجامعة، وكانت النتيجة أن 79٪ من الرجال الذين تم استجوابهم فكروا في القتل ولو لمرة واحدة بما يقابله 58٪ من النساء، كما أن مدة التفكير في القتل لا تتجاوز ثوان قليلة بالنسبة للنساء أما الرجال فتخيلاتهم تستمر لدقائق أو أيام... فكيف يمكن تفسير هذه المعطيات؟

فرضية الهفوة: تبعا لهذه الفرضية فقد طور الذكور نزعة نفسية فطرية للعنف بمثابة وسيلة للضبط ولإزالة مصادر الصراع، وتتجسد هذه النزعة في مخرجات سلوكية تتخذ شكل تهديدات بالعنف إلا أنه في بعض الأحيان تحدث انزلاقات نحو عنف يفيض بشكل عرضي وصولا إلى القتل.

فرضية تكيف القتل: طور البشر خصوصا الرجال آليات نفسية نوعية تجعلهم معرضين لقتل آخرين في ظروف يمكن التنبؤ بها مثل الحروب أو الخيانة ..، أما النسبة للتخيلات فهي آلية لتقويم التكاليف والمنافع التي يترتب عليها القتل.

لم يتم بعد مضاهاة هاتين الفرضيتين مباشرة ببعضهما البعض في اختبارات تجريبية إلا أن الشيوع الكبير لتخيلات القتل الإنساني وقابلية التنبؤ بالظروف التي تطلقها ودليل الفروق بين الجنسين يرجح فرضية تكيف القتل.

(*)- دكتوراه العلوم التطبيقية، جامعة ورقلة، الفصل العاشر بعنوان: العدوان والحرب ص269-624

الفهرس

مسالك المعرفة

كتاب بحثي يصدر عن منتدى مسالك المعرفة العلمي

- مواضيع العدد القادم:
- عرض كتاب: الأصول الثقافية للمعرفة البشرية، ميشال توماسيللو

